

الرواية العالمية (٩)

شعاذون.. ومعتزون

تأليف: البير قصيري
ترجمة وتقديم: محمود قاسم



المجلة العربية العامة للكتاب

١٩٨٨

رئيس مجلس الإدارة:

أ.د. سمير سرحان

رئيس التحرير:

فتحي العشري

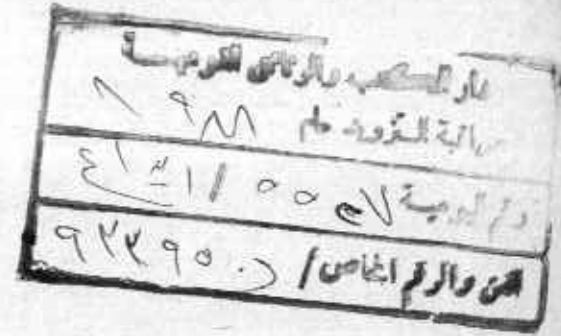
المشرف الفني:

رفيق بيونس

مقدمة

هذا الروائي وهذه الرواية

لم اتحمس لرواية واعجب بكاتب خلال السنوات الأخيرة مثلما تحمست لهذه الرواية التي اكتشفتها مصادفة في إحدى المكتبات .. فهي رواية لا يمكن إلا أن تبهرك بعالمها .. منذ أول سطر حتى آخر كلمة .. بصدقها .. وإصالتها .. الغريب أنني ما إن انتهيت من قراءة الفصل الأول حتى قررت أن أترجمها .. رواية مصرية مائة في المائة .. ومن المنير للدهشة أن هذا الكاتب غير معروف على خريطة الحركة الأدبية المصرية والعربية والسبب بسيط هو أن أحدا لم يترجم له أي من رواياته السبع ، فهي رواية مصرية وليست مصرية .. فكاتبها مصري .. ويكتب كل رواياته عن مصر .. عن قاع المجتمع .. طبقات معينة من هذا المجتمع .. ولا نغالي إن قلنا إنه سبق غيره من الأدباء المعروفين في هذا المضمار .. والبرهان موجود في هذه الرواية التي بين أيدينا .. حيث يمكنك الحكم على هذه المقولة بعد الانتهاء من قراءة هذه الرواية .. ثم بقية روايات البر قصيري ..



هذه هي الترجمة الكاملة لرواية « شحاذون ومعتزون »

Mendiants et Orgueilleux, Albert Cossery, Julliard, 1979, France.

وهذا الكاتب المصرى المعروف بدرجة أقل فى الغرب يشبهونه
بهنرى ميللر أشهر من كتب أدبا مكشوفيا فى القرن العشرين ..
فعالم البير قصيرى ينتمى وحده الى ما يكتبه ، وليس اكثر ..

والبير قصيرى هو أحد المصريين ، وهو أكثرهم مصرية من بين
الذين يكتبون أدبهم مباشرة بلغة غير عربية .. فظلم بذلك نفسه
ورواياته .. فالقارىء فى بلاده حرم من هذه الروايات .. وظل
قاصرا على الأسماء القليلة المعروفة التى شكلت عقليته ولم تسمح
بمدخول أسماء جديدة ..

وقصيرى ينتمى الى جيلى جورج شحادة واندرية شديد وجورج
حنين .. وكلهم كتبوا عن مصر .. بل وعن اعماق هذه البلاد بصورة
تثير الدهشة .. مزجوا التاريخ بالمعاصرة بالواقع ..

ولد البيرى قصيرى فى مدينة القاهرة فى ٣ نوفمبر عام ١٩١٣
من أبوين مصريين .. التحق بالمدارس الفرنسية القاهرية . فكان
أحد أبناء الأسر التى لا تتحدث فيما بينها وفي حياتها الخاصة الا
باللغة الفرنسية ولم يستطيعوا التعبير عن أدبهم باللغة العربية ..
وفى عام ١٩٣٠ سافر لأول مرة الى باريس لاستكمال دراسته .
وفى باريس كتب روايته الأولى « بشر منسيون » . التى ترجمت
عام ١٩٤٦ الى اللغة العربية والانجليزية فى طبقات بسيطة محدودة
ولا أحد يعرف مصيرها حتى الآن . وقد دفعه نجاح هذه الرواية الى
أن يسير فى درب الكاتب الأمريكى هنرى ميللر . وقد سعى البير
الى الولايات المتحدة من خلال عمله فوق إحدى السفن التجارية
المصرية التى جابت به انحاء العالم . أحب الكثير من الموانئ على
رأسها الاسكندرية وبورسعيد ونيويورك والجزائر . وأقام فى
بعض هذه المدن فترة من الوقت . لكنه أبدا ظل متعلقا ببلاده . ورغم
ذلك فقد قرر فى سبتمبر ١٩٤٥ - وبعد أن انتهت الحرب -

الاقامة فى باريس . وهناك سعى الى نشر روايته « بشر منسيون »
مرة أخرى . وقد ساعده نجاحها على الاقامة الدائمة فى باريس .
وتوالى رواياته القليلة وهى : « منزل الموت الأكيد » التى طبعت
بالفرنسية فى إحدى مطابع القاهرة . و « شحاذون معتزون »
و « كسالى فى الوادى الخصيب » و « العنف والغسل » ثم « مؤامرة
على بنك » . وهى جميعا عن مصر ..

وقد أخرجت السينما الفرنسية رواية « شحاذون ومتكابرون »
فى فيلم سينمائى لم يلق نفس نجاح الرواية الى كتبها عام ١٩٥٧
وتدور أحداثها فى عام ١٩٣٩ ، أى قبل اندلاع الحرب العالمية
الثانية بقليل . ولن نتناول الرواية فى هذه المقدمة لكننا
باختصار أمام أربعة رجال يمثلون الطبقات الاجتماعية المصرية فى
تلك الآونة .. ضابط الشرطة ابن الارستقراطيين ، وجوهر استاذ
الجامعة الذى فضل ان يتخلى عن وظيفته ليعيش صعلوكا . والمناضل
الموظف الكروى .. ويحيى الشاعر الصعلوك .. والذى يحبه أبناء
الشعب لانه يعبر عنهم ..

البير قصيرى اكتشاف جديد قديم تقدمه للمقارىء العربى .
ونأمل أن تتاح الفرصة لترجمة بقية رواياته .

محمود قاسم

شعاذون ومعتزون

- ١ -

استيقظ جوهر ، حلم أنه يفرق ، استند على مرفقيه وتطلع
حوله ، امتلأت عيناه بالرغبة ، والرغبة في النوم مرة أخرى . لم
يعد يحلم ، ولكن الواقع كان قريباً من حلمه حتى تردد لحظة .
وأدرك أن هناك خطراً يهدده . تتم : يا الهى ، لقد حل الفيضان
وسوف يفرق النهر كل شيء . لكنه لم يبد أى استعداد للهروب
من الكارثة . بل على العكس فقد ظل غارقاً فى نومه كان شيئاً لم
يحدث .

استغرق كثيراً من الوقت كى يتماسك ، ود لو يملك عينيه
لكنه امتنع . فبداه مبللتان وملزجتان . ينام فوق الأرض بملابس
الخروج . فوق حاشية رقيقة من أوراق الصحف القديمة . لقد
علت المياه وغطت الأرض كلها حتى دخلت غرفته . تنساب نحوه فى
هدوء كأنها كابوس . أحس جوهر كأنه يقف فوق جزيرة تحوطها
الأمواج العاتية ، فلا يجرؤ على الحركة . أغرقه انسياب هذه المياه

يكره ان تحوطه الاشياء . فالاشياء تخفى اسباب المأساة وتجسدها وتضاعف منها .

المأساة التي لا تشوبها شائبة وتثولد حتما . يخشى ان تعود المأساة للظهور مرة أخرى لقد أصبحت الاشياء رمزا . وعليه ان يبعد عن عينيه كل المؤثرات . لذا أخلى جوهر غرفته من كل شيء وبدت له بالغة الجمال . وفيها يشعر بالتفاؤل والحرية . فالاثاث يشير حفيظته . لأنه لا يمكن أن يسير غريزته في التطلع نحو الرفاهية . لكن الناس وحدهم في أشكال جنونهم المخيلة يمكنهم التسرية عنه .

ظل ساكنا برهة . وهو يتطلع الى سريره الأرضي الذي لم يعد صالحا للاستعمال . لقد غرقت الجرائد القديمة التي يستخدمها كحاشية . وبدأت في الالتصاق بالأرض . أحس بالسعادة وهو يراها تتلف بسبب بساطتها الأولية . لم يعد هناك شيء . فقد مرت العاصفة بلا خسائر جسيمة . أحس جوهر أنه لا يزال صامدا . ولذا لن يسعى لمعالجة الموقف من جديد تذكر جيرانه المزعجين وتساءل عن أسباب هذه النظافة المريبة . ماذا يودون ؟ فالمنزل لا يحتمل أبدا مثل هذه المظاهر ، فالمنزل متهاك وقد ينهار بين لحظة وأخرى . وأنداك سوف يتضرعون مبتهلين الى الله أن ينقذهم .

حاول جوهر ان يفهم نوايا هؤلاء الجيران المزعجين ، عندما انفجرت صرخة ضخمة متدفقة من صدور عديدة ، صرخة قوية أشبه بليل سرمدي ، قادمة من الغرفة المجاورة . اهتزت لها جدران البيت القديم وشقت صدره ، أعقبها صمت حاد . ثم صراخات مدوية . لم يفهم جوهر على التو ماذا يعنى هذا الهذيان الشديد . فهناك في الغرفة المجاورة يوجد ميت . وما تلك المياه البيضاء المليئة برغاوى الصابون الا الغسول الذي غسلت به البجثة .

في ذهول شديد . استبد به خوف أن يستيقظ من نومه . لقد أدرك الآن ان فكرته عن الفيضان الذي يندفع في مجرى النهر ليست سوى خيالات . حاول ان يعرف من اين تأتي هذه المياه . وهو يدفعها بقدميه أدرك انها تتسرب من أسفل باب الغرفة المجاورة .

ارتعد جوهر وهو يشعر بخوف شديد من البرد ، حاول ان ينهض . لكن النوم يثقل عليه . يشل أعضائه . يربطه بأربطة خفية . مسح يديه اللتين لم تبلا بعد في سترته . الآن يمكنه ان يدعك عينيه . شعر بالخوار والتعب . تطلع الى باب الغرفة المجاورة وهو يفكر : « لعلهم يمسحون البلاط . ومع هذا فشلوا في اغراقى » بدا له ان الجيران يتصرفون بطريقة تشبه الغيظ . خاصة ان هذا الأمر لم يحدث من قبل . في هذا المنزل المتداعى الذي يقع في أحد الأحياء الشعبية . يسكنه قوم فقراء تربط الالفه فيما بينهم . لا يمسحون البلاط أبدا . لعلهم سكان جدد ماكرون يحاولون اثاره مشاعر أهل الحي ..

ظل جوهر جامد المشاعر . وكأن ذهولا استبد به . عليه ان يفعل شيئا كي يوقف هذا الفيضان . لكن ماذا يفعل ؟ من الأفضل ان ينتظر حدوث معجزة . فمثل هذه المواقف العابثة تقتضى خلا عن طريق قوى خارقة . أحس جوهر بخوار في قواه . انتظر بضع دقائق لكن شيئا لم يحدث ، ولا توجد قوة يمكنها ان تزعجه من مكانه . انتصب فجأة . ظل واقفا ساكنا . وقد أصابه عذيان . كفريق تم انقاذه . ثم وبتناقل بالغ ، تقدم ناحية الأرض واتجه الى المقعد الوحيد الذي لا يوجد سواء في الغرفة . اللهم الا صندوقا مصنوعا من خشب المامبو . عليه موقد ، وانا ، قهوة وزجاجة مياه صالحة للشرب . فجوهر يعيش في أشد ظروف العيش شظفا . لقد استبعد من ذاكرته منذ زمن طويل أبسط فكرة عن الرفاهية .

فى أول الأمر ، أحس بدهول تبعه شعور بالاشمئزاز . فجلس فوق المقعد وقد تقطعت انفاسه . نظر بنصف عين الى يديه المرتعدين والمبللتين ، وملابسه التى لوثت بالموت . انتفض فجأة لينفض عنه اسباب الموت الماكرة . واسرع نحو القلة . لكن القلة خاوية ، ألقي جوهر نظرة مرتعدة ، وهو يفتش عن حنفية غير موجودة . كيف يغسل يديه ؟ أبقاهما متباعدتين وهو يتساءل عن المرض الذى اصاب جاره . لعله أصيب بمرض معد وهو يؤكد لنفسه متألماً «الجراثيم» . بدا أن الخوف من الجراثيم شئ مضحك . اذا كان علينا أن نموت من الجراثيم لمتنا جميعاً منذ وقت طويل . فالجراثيم تفقد فاعليتها فى مثل هذا العالم . جلس فوق المقعد وظل يفكر طويلاً فى هذه المغامرة القريبة . اجتاز كوارثه العديدة بفضل تفاؤله واحساسه بأنه تخلص منها الى الابد . من جديد تأمل الأرض التى طالتها المياه ، وورق الصحف المتناثرة والغرفة الخاوية ، فانفجرت ابتسامة غريبة من وجهه الهادئ النحيل .

فى الغرفة المجاورة ارتفع النجيب الى أعلى درجة . اتسعت صرخات النساء الى حد لم يعد يحتمله . عاكسة جوا من الدراما الدامية . ولا يمكن لأى قوى بشرية ان توقفه . بدا جوهر مفتوناً بهذه الصرخات المرعبة . وشعر بالرغبة ان يقاجتهن بالصراخ مثلاً يفعلن . ولكن هذه الصرخات تخرج من حناجر مآجورة . وتخترق أذنيه كأنها نداءات قادمة من عالم غريب ، لم يعرف فيها أى سمة من سمات الآدميين . هذا العالم المصنوع من الآلام المصطنعة الصارخة التى تملأ رأسه بضوضاء مسموعة تبعث على الدوار .

لقد استيقظ قبل مواعده . ويريد ان ينام ثانية . لكن كيف ينام وخلف جداره هؤلاء الناديات الملعونات ؟ نساء لا يعرفن الرحمة . ارتعد جوهر . وقد اتابته رعشة باردة . انتظر طويلاً ، ثم هب من مقعده وقرر الخروج .

أمسك طربوشه الذى كان يضعه فى ركن من الغرفة لم يصل اليها البلبل . دسه فى رأسه : ثم أمسك عصاه وخرج الى السلم . كان باب جيرانه مفتوحاً على مصراعيه . تردد جوهر طويلاً وقد ارتسم الخوف على وجهه . فلأنه رجل اعتاد الحذر فهو يعرف ان النساء ستبكي عندما يشاهدن رجلاً ، لذا هرول الى السلم دون تفكير وهو يلقي نظرة خفية على العديد من النساء البدينات اللائى اتسحن بملابس الحداد . وهن يجلسن داخل دائرة . يضربن صدورهن بأيديهن ويطلقن الصرخات الحادة . أحس جوهر أنه يكاد أن يغشى عليه . وان السلم سوف ينهار أسفل قدميه ولم يعرف كيف وجد نفسه فى الشارع .

الوقت ظهراً . شارع الأزهر الواسع يعج بحشده متزاحم يشغله شغل . عاد جوهر الى لياقته . فهنا عالمه المألوف بين الجموع الفقيرة التى ترزخ فوق أرض الشارع والرصيف رغم ان الطريق مليء بالسيارات . والعربات الحنطور والكارو . والترام الذى يسير بسرعة . سطعت شمس الشتاء الواهية فوق الحشود . تظهر الحدايات فى أعلى السماء ثم تغوص - من وقت لآخر - وسط الجوع كى تعاود الطيران وقد امتلأت مناقيرها بقطع من اللحم . فلا يعبرها أحد انتباها . تقف النسوة امام محلات الاقمشة . يثرثرن لساعات اثناء شراء بعض المناديل المطبوعة . يتسلى بعض الأطفال وهم يشاكسون قادة السيارات حين يقفون امام عرباتهم . فيطلق السائقون سبابهم ولعناتهم عليهم وعلى امهاتهم الغائبات . وقد ينتهى الأمر بدهم أحدهم . من المقاهى المتناثرة فى الشارع تبث أجهزة المذياع نفس الصوت الباكى لمطرب معروف . تصاحبه موسيقى حزينة . وكلمات تعبر عن آلامه وأحزانه حول قصة حب ضائع . تذكر جوهر جاره الميت . ونواح النسوة فأسرع الخطى .

لكن لا جدوى من الفرار من هذا الصوت الحزين الذى يملأ الشارع
بأكمله .

توقف جوهر وقد تكتم احساسا بالفرح وسط هذا المزيج
المنافر من الاصوات فى الشارع . فامام حانوت خاو رأى عجوزا ،
يجلس متأنقا فوق مقعده . وقد أخذ يتطلع الى المارة بنظرة متعالية .
يبدو غريب النظرات . فكر « هذا رجل ارتاح اليه » فهذا الحانوت
الخاوى وهذا الرجل الذى لا يبيع شيئا يمتلا بالنسبة له أمرا
منشودا لا يقدر بمال . فالحانوت ليس سوى ديكور ، وهو يفيد
فى استقبال اصدقائه الذين يدعوهم لاحتساء القهوة . فهو رجل
يتمتع بكياسة وكرم كبيرين . حياه جوهر كأنه يعرفه منذ أمد
طويل . رد الرجل مبتسما وقد أدرك أنه معجب به . قال الرجل :

— شرفنى وتناول فنجان قهوة .

قال جوهر : شكرا ، فى مرة قادمة .

تبادلا النظرات لحظة بمودة بادية يحوطها الدفء . ثم
استكمل جوهر طريقه وسط الجموع . كان بالغ السعادة . نفس
الشيء يحدث له دائما : هذه الدهشة ازاء البساطة الغامضة للحياة .
فكل شيء مثير للسخرية . وليس عليه سوى ان ينظر حوله كى
يقتنع . فالأمور التى حدثت له لم تكن مأساوية بالمرة . بدت
المأساة ذات ثراء غامض . لم يسمع أحد عنها أو يتوقعها . تتحكم
اللامبالاة فى مصير هؤلاء الناس . اكتسبت كل الاشياء الدنيئة
بعلامات البراءة والنقاء . أحس جوهر بمشاعر التعاطف الانسانى
فى كل خطوة يخطوها فى هذا الجمع الغفير .

عبرت عربة ترام صفراء الشارع محدثة ضججة شديدة .
يحتفظ بتذكرته دوما لكى يشق لنفسه ممرا وسط الجمهور الذى

يسد منافذ الطريق . وقريبا من مطعم فول مدمس ، أثارت رائحة
الطعام الرغبة فيه . توقف . اتكا على عصاه . وانتظر قليلا ، لا .
ليس الجوع هو السبب فليس للجوع أدنى تأثير عليه . يمكنه ان
يعيش أياما على كسرة خبز . يعنى هذا الاضطراب شيئا آخر .
سار بضع خطوات وأدرك طبيعة قلقه . الحشيش . لقد نسي
الحشيش ، لخبطلت وفاة جاره عاداته اليومية . فجوهر لا يستيقظ
الا مع حلول الليل ، ولم يحن الوقت بعد لتعاطى المخدر . ومن الصعب
الوحيد هو يحيى الذى لا يمكن أن يلقاه الا فى المساء . ومن الصعب
أن يقابله الآن . فليس ليحيى مسكن محدد . لأنه يعيش بلا مأوى .

كيف يمكنه أن يتماسك حتى يحين الليل ؟ تبعث هذه
الرؤية الجنون داخله ، سوف يعانى . ويعرف ذلك جيدا ، وقد
استعد تماما لهذه المعاناة . فوضع فى جيبه كيسا ملفوفا . سيجب
منه قطعة من النعناع . وبدأ فى استحلابها ببطء ومهارة . ليس
لها مذاق الحشيش . ولكن هذا الطعم لا يمكن أن يلهيه .

ابتسم وهو يرى عن بعد الشحاذ الذى لا يفتقده متقوقعا فى
ركنه المألوف . نفس النداءات التى يرددها دائما . فى كل فترة
يمر أمامه . اذا لم تكن مع جوهر نقودا ، يدور بينهما حديثا له
أهمية خاصة ، فجوهر يعرفه منذ أمد طويل ويشعر بالسعادة حين
يحادثه . انه شحاذ من نوع خاص ، ولا يردد أى شكوى ولا يعانى
من أى عاهة . بل على العكس ، فهو يتمتع بصحة طيبة . جلبابه
سليم ونظيف تقريبا . تختلف نظراته عن نظرات الشحاذ المحترف .
يعجب به جوهر كثيرا . لأنه لم يحافظ على تقاليد الشحاذين .
ولا يعبر أحد هذا الشحاذ الا يتق أى اهتمام فوسط هذا العالم
العشى . يبدو ما يفعله الشحاذ عملا مثل بقية الأعمال ، العمل
الوحيد المقبول منطقيا ، من ناحية أخرى فهو يقع فى نفس المكان

دائما . كأنه موظف يجلس وراء مكتبه . يلقي المارة ببعض القروش
فى بعض الاحيان ينبه المحسن انه قد منحه قطعة معدنية زائفة .
وقد يهدده أن يستدعى الشرطة . وتنتهى الأمور دائما لصالحه .
توقف جوهر وحياء . رد الشحاذ : وعليكم السلام . رأيته
تأتى عن بعد ، فتأهبت للقاءك .

قال جوهر : آسف . فليست معى نقودا . فى المرة القادمة .
- من أخبرك أننى أريد نقودا ؟
- ولم لا ؟ اعتقدت انك تحتقرنى .

قال الشحاذ محتجا : أبعد عنك هذه الفكرة . فرؤيتك وحدها
تسعدنى . لأننى أحب الحديث اليك . وحضورك يساوى كنوز
الدنيا .

قال جوهر : أنت تبالغ . هل تسير الأمور على ما يرام ؟
- ربنا كبير ! من السعادة ان تكون موجودا . ألم تسمع حكاية
الانتخابات ؟

- لا . أنا لا أقرأ الصحف .

- انها ليست فى الصحف . بل حكاها لى شخص .

- حسنا . اسمعنى اياها .

- لقد حدثت منذ أيام فى احدى القرى الصغيرة بالدلتا .
أثناء انتخابات العمودية . عندما فتح موظفو الحكومة الصناديق ،
لاحظوا أن أغلب البطاقات تحمل اسم برغوث . ولم يكن الموظفون
يعرفون هذا الاسم . فهو ليس فى قائمة أى حزب من الأحزاب .
أصابهم الجنون . ورجعوا الى المصادر ليكتشفوا ان برغوث هذا

هو اسم حمار يلقي احترامها كبيرا لرجاحة عقله فى القرية . وقد
صوت أغلب السكان من أجله . ما رأيك فى هذه الحكاية ؟

شعر جوهر بارتياح وهو يفكر : يالهم من جهلاء . لقد فعلوا
أفضل شئ منذ أن عرف الانسان الانتخابات . فتعريف هؤلاء
الفلاحين الضائعين فى أعماق قريتهم برهان ان الحالة أصبحت
محالة . أحس جوهر بالاعجاب من هذه الحكاية وهو يتأمل الشحاذ
برهة . حطت حداة على الرصيف قريبا منهما . نقتب بمنقار
باحثة عن شئ تخطفه وسط الزبالة . فلم تجد شيئا تأكله فعادت
الطيران .

صاح جوهر : عجبا . وكيف انتهت الحكاية .

- بالتأكيد لم تتم الانتخابات . فهم يريدون حمارا بأربعة
أقدام بينما المرشح حمار بقدمين .

- انت تستحق هدية لهذه القصة الرائعة التى أسعدتنى .
ماذا أستطيع بالنسبة لك ؟

قال الشحاذ : تكفينى صداقتك ، كنت أعرف مسبقا انها
ستعجبك .

رد جوهر : معرفتك تشرفنى دوما . الى اللقاء .

استدار جوهر وعرج داخل حارة هادئة . متجها الى مقهى
المرايا . يعرف انه لن يقابل أحدا فى هذا الساعة من النهار .
ولكن يجب تحقيق المعجزات .

تقع مقهى المرايا بين تقاطع حارتين . تشغل الجزء الأكبر فى
مبنى من الطوب اللبن . ممنوع على العربات الكبيرة المرور منه .
ولكن مسموح لعربات البساعة الجائلين . تعلوه مظلة ضخمة من

قال الكردي : وأنا ايضا .

اطلق التادل الطلب بصوت متناغم وعال ، تطلع جوهر نحو الكردي الذي يبدو الاسى والحزن البالغ على وجهه . يحاول أن يجسد هذا الاحساس . شاب مهنم أنيق . يرتدى طربوشا جديدا عينا مشدودتان بخلة . وقمة شهواني مليء بالمرارة . يعمل موظفا بسيطا في احدى الوزارات وهو عمل يتناقض مع رومانسيته ويمكن ملاحظة حبه للحق بسهولة . قال :

- لا أستطيع أن أتركها على هذا الحال . يجب أن أفعل شيئا . انصحنى والا انتحرت لم يرد جوهر على الفور . امتص التعانق الذي أنساه الحاح المخدر تماما .

- لماذا تنتحر ؟

- انت لا تفهم . يجب أن أخرجها من هذا المأخور . لا أستطيع أن أتركها تمارس الدعارة هكذا . مريضة هكذا خاصة أن الست أمينة - السافلة - لا تسمح لها حتى بالراحة عندما أفكر في كل النقود التي جلبتها لها . يا للعار ! قلت لك سوف أنتحر .

لم يعر جوهر كلامه أهمية . فالكردي يبالغ دائما فيما يتعلق بمتاعبه . يبدو الآن كأنه يحمل هموم الدنيا . تنتابه هذه الحالة بين الحين والآخر كي يشعر بكرامته . فالكردي يتخيل أن الكرامة هي ضريبة الألم واليأس . ويشعر أن كثرة قراءاته الغربية أفسدت فكره .

تنصب متاعب الكردي الحالية من خلال احدى العاهرات الشابات التي تعاني من مرض السل الرئوي في أحد المواخير القريبة . مأخور فقير يؤمه صغار الموظفين وأشبهاء المدينة في البداية التقى بها الشاب مرتين أو ثلاث دون أن يعير الأمر انتباهها . الا عندما

الكتان أعلى الشرفة الواسعة فتبدو وكأنها سوق مغطى . علقت مرآيا عديدة أحاطتها اطارات ذهبية في كل مكان . خاصة في الواجهة . اشتهر مقهى المرايا بشايه الأخضر وارتفاع مستوى زبائنه من أصحاب السيارات ، ورجال الفكر والسواح الأجانب الذين يعيشون الذوق المحلي . في هذه الساعة لم يكن المقهى مزدحما . اجتاز جوهر الشرفة وتسلل بين الموائد باحثا عن شخص يعرفه . يدخن بعض الأشخاص الذين تبسّدو عليهم الأهمية نرجيلة وهم ساكنين في أماكنهم . يلعب الآخرون الطاولة ، أو يحتسون الشاي . هناك بعض بقايا السجائر المتناثرة تنتظر جامعي الأعقاب الذين يقومون ويوزعون العمل فيما بينهم دون أن يخشوا أى مناقشة .

- السلام عليكم يا سيدى !

استدار جوهر . قام الكردي بتصف قامته من فوق مقعده وهو يمد يده . سألته جوهر :

- كيف حالك ؟ ألم تذهب اليوم الى الوزارة ؟

- ذهبت . ولكننى تركتها لتوى . لا أستطيع أن أعمل يا سيدى . فأنا رجل بائس .

- ماذا بك يا ولدى ؟

قال الكردي بنبرة غامضة : جئت من هناك . أشد مرضا من أى وقت آخر . تركتها نائمة - لاحظ أن جوهر لا يزال واقفا .

اجلس يا سيدى .

- اجلس جوهر . نادى الكردي على النادل :

- ماذا تشرب ؟

رد جوهر : شاي .

علم بمرضها . أحس أن المجتمع قاس عليها فأحبها بجنون . وأصر
أن يخرجها من هذا المأخور وإن ينقذها من موت محقق . لكنه
لا يمتلك النقود الكافية لمواجهة هذا المرض الشرس . فظل يتخيل
الحلول المثلى لحبه البائس . وفي هذه اللحظة قرر الانتحار . لكنه
أدرك أن الانتحار ليس قراره النهائي . سأل :

- ماذا أفعل ؟

أسكت جوهر . بدا كأنه ينسلي . تشع عيناه بفرحة تكمن
في أعماق هذا الوجه الجامد . قال له بعد قليل :

- سأروى لك حكاية غريبة .

سأل الكردي : ما هي ؟

روى له جوهر حكاية الحمار برغوث الذي انتخب كعمدة لما
اشتهر به من حكمة ودل هذا على حكمة فلاحي الدلتا . بدأ الكردي
في الابتسام . لكنه أدرك أن عليه ألا يكون سعيدا كي يثبت لجوهر
أن هناك أشياء جادة في حياته . بدا محتدا وهو يقول :

- حرام . هذه أشياء همجية .

- أعتقد أنهم همج ؟

- أجل . وتستغل الحكومة جهلهم .

- لكنهم أعطوا درسا بليغا لحكومتك .

قال الكردي غاضبا : أولا يا سيدي . ليست حكومتى . ثم
إن لي أساليبى التى أناضل بها ضد هذه الضغوط . وسسوف
تكتشف يوما أن هناك أشياء جادة فى الحياة .

- أين ترى الأشياء الجادة يا بنى ؟

تطلع الكردي حوله بشكل غريزى . وهو يفتش عن مظاهر
العظمة . ولكنه رأى جامع أعقاب صغير ينحنى قريبا من المائدة
كأنه يستمع لحديثهما . يلتقط الأعقاب بمهارة وتلقائية . أثار
هذا المشهد الكردي فقام وأزاح المقعد كي يمكن له أن يتفحص
الأرض . ورغم هذا لم يبتعد الطفل . بدا كأن حبلا ربطه بهما .
قال وهو ينظر الى الطفل ساخرا :

- ألا تود أن تتناول معنا شاي . يا سعادة البك ؟

- رد الطفل : شكرا . فقد شربت فى قهوة البسفور .

والبسفور مقهى فخم يؤمه علياء اليوم . ولم يطأه الكردي
بدا . قال غاضبا :

- هيا يا ابن الكلبة . و الا خنقتك .

غادر الطفل المكان مشمئزا . عندما ابتعد انفجر الكردي
ضاحكا :

- هل سمعت يا سيدي . يا له من طفل خفيف الظل .

ابتسم جوهر وهو ينظر الى الشاب بنظرة تملأها السخرية .
انه معجب بعبثه الذى لا حدود له . فهو شاب ثورى يؤمن بأفكار
حول مستقبل الجماهير وحرية الشعوب . ومع هذا فهو بالغ العبث
لا يهرب من هذا العالم الساخر . له أسلوبه ضد القهر . ويؤله
أنه مقهور هو والشعب . ما أن يترك لسجيته حتى يمارس الأمور
السلطوية .

يبدو الآن وكأنه أفرغ مرارته فى جامع الأعقاب الصغير الذى
أنساه كل همومه . سعيد لأنه يجلس مع جوهر . فمعه تصبح
الأشياء سهلة . وتخف صعوبات الحياة . وتكتسى الكوارث بلباس
غريب . ويحس الكردي بطفولته تعود اليه .

- وماذا عن السفر يا سيدي ؟

- أفكر فيه يا ولدي .

قال الكردي بحرارة : عليك أن ترحل . فسيكون هذا رائعا .

عندما يحدثه عن السفر يغلق جوهر عينيه . كأن حنيئا يبجيء
من بعيد ويستولي على انتباهه . يحلم بالسفر الى سوريا . حلم
يداعبه منذ زمن طويل . انه الوحيد الذي يمكنه القيام به . لأنه
يربطه بمنابع نشوته . بالمخدرات غير ممنوعة في سوريا . والحشيش
ينبت بحريه في الحقول . ويمكن للانسان أن يزرعه بنفسه .
عرف جوهر هذه التفاصيل يوما . ومنذ ذلك الحين لم يكف عن
الحلم بالسفر . يبدو هذا البلد المجاور أشبه بالفردوس . من
الظلم أن يظل يعيش هنا . فعلى مسافة ساعات تكون المخدرات
مباحة . فكر جوهر في كل هذا الظلم . لا يمكن أن يغفر للقدر
أنه ولد خلف هذه الحدود . يشعر أنه لن يسافر أبدا . ويحس
أحيانا أنه يعيش من أجل هذه الفكرة . وسوريا بالنسبة له ليست
سوى الحشائش الخضراء التي يستخرجون منها الحشيش . في
ذلك الزمن الصعب الذي استقال فيه من وظيفته . لم يكف هذا
المشهد عن مداعبته . قال الكردي :

- أراك تزرع حقولا كبيرة بالحشيش .

قال جوهر : يجب أن أذهب . لكن ليس هذا بالأمر السهل .

- انها مسألة نقود يا سيدي . أود أن أسمع منك نصيحة .

قال جوهر : تحت أمرك .

تظاهر الكردي بالاهتمام وهو يقول :

- يجب أن أنقذ هذه الفتاة . حتى لو سرقنا من أجلها .

هل تسمعني . حتى لو سرقنا ما رأيك .

فكر جوهر . أنه ليس ضد السرقة . فكل الناس يسرقون .
لكن هناك طرقا ووسائل لم تخطر ببال الكردي . انه يحب
الشباب . ولا يود أن يراه في السجن . سوف يفقده . ثم ان
الكردي لا يمكن أن يحمي نفسه في السجن . سوف تموت روحه
اذا فكر في الحرية . رأى جوهر أن من الصعب أن يفسر له هذا .
قال :

- يدعشني موظف محترم مثلك .

قال الكردي : الموظف المحترم - مثلما تقول - قد كسر
قلبي . هل تعرف أن رئيسي قد كسر قلبي وهو يقول : سيعظم
هذا القلم الحكومي البائس معك يا عزيزي الكردي أفندي . أعتقد
أن الآخرين يعملون خيرا معك وهأنت تراني . موظفا بلا قلم .

قال جوهر : أهنتك على هذا .

على المائدة المجاورة . يجلس شيخان عجوزان فاقدان البصر
تماما . يتحدثان عن القيمة الفنية لأحد المساجد الكبيرة . كان
أحدهما يعامل الآخر كأنه يرى . فوضع هذا السباب الصارخ حدا
للمناقش بينهما فتركا المائدة وذهب كل منهما الى حال سبيله .
نسى الكردي فكرته في أن يصبح لصا مثلما نسي أن ينتحسر .
كانت الساعة الثانية ولا يعرف أين يقضي الظهيرة :

- هل تتناول غداءك معي يا سيدي .

رد جوهر : لا ، أنا لا أكل في مثل هذه الساعة . ثم انني
لست جوعانا . يجب أن يتعاطى المخدر . لم يعد يحتمل . وعليه
أن يعثر على يحيى بأي طريقة .

- ألم تر يحيى اليوم ؟

- أجل ، رأيته عند السبت أمينة عندما ذهبت اليوم لرؤية
نايلة . كان نائما على الأريكة في قاعة الانتظار . لم أشأ ايقاظه .
أعتقد أنه قضى الليل هناك .

ارتبك جوهر . عليه أن يلحق بيحيى قبل أن يستيقظ من
نومه .

- يجب أن أتركك يا عزيزى الكردي . سنقابل في المساء .
قال الكردي وقد كسا لهجته بتعبير مثير للرثاء :
- كيف لك أن تتركنى فى حال بئس كهذا ؟
- معذرة . أنا مضطر . السلام عليكم !

عبر جوهر المقهى بخطى متعجلة سريعة . دعاه بعض الزبائن
للجلوس معهم . ولكنه اعتذر لهم بلباقة . وبعد أن سار قليلا
بصق النعناع وبدأ يشعر بالغثيان . ففكرة الحشيش القريب
منه قد عشتت في رأسه مرة أخرى . وبخطوات رششيقة عبر
المحارات التى تملأها المباني التى تكاد أن تنهار .

(٣)

فجأة . هب عليه ضوء النهار قويا . أوقف انطلاقه كانت
عيناه قد اعتادت ظلمة الشرفة المغطاة . الآن . يجد نفسه لا يتكيف
أمام ضوء النهار القوي والمثير . يبدو له أشبه بسد منيع . فالحارة
التي يسكن فيها ضيقة للغاية . ومكدسة بالقاذورات . والأشخاص
الذين يرتكبون بجوار الحائط . أو يقفون بجوار الأبواب . ثابتين
فى وقفتهم . ينشرون جمودهم لائنا عزم المارة . على أبواب الاكواخ
تمتلئ الأرض بأطفال صغار يعف الذباب على عيونهم . أشبه
بحيوانات زاحفة صغيرة . وقد تفرقت بعض النسوة وهن يغسلن
ملابسهن فى طشوت من الصاج . وتقوم أخريات بطهو طعامهن
فوق المواقد التى تصدر أصواتا أشبه بالفاطرة . بين القيشة
والأخرى يلقين بالشتائم الرنانة لأطفالهن المزعجين .

أمام كل هذه الحواجز المتراكمة . يشعر جوهر بالدوار .
ليس عليه سوى أن يخترق هذه الجموع الصماء الصعبة الاختراق

كسلسلة جبال عالية . وتدفعه حاجته الى الحشيش والخوف من فقدانه . فالامر بالنسبة له مسألة مصير . وبدون أن ينتظر . قفز . كما يفعل رجل ضرير وهو يستكمل طريقه دون أن يعير الصرخات واللعنات التي يتلقاها في طريقه أهمية . يحس بالهواء ثقيلًا كمن حوله . وإن المخلفات الآدمية تسد عليه الطريق كأنها تتحرك غير مبالية . لم يكن الماخور بعيدا . ولكن يبدو لجوهر أن المسافة تزداد طولًا . سار وكأنه نائم . تنكئ يده على عصاه . وتمتد الأخرى نحو الأمام كطفل يأخذ حذره . ناداه بانع الفجل باسمه وهو يدعو له ببعض الكلمات الطيبة . لم يعرفه جوهر انتباهًا . فأماه الآن شيء آخر غير أكل الفجل . فقد أنستة هرولة للقاء يحيى كل عاداته اليومية .

بعد قليل . رأى المنزل من بعيد فأحس بنوع من الاطمئنان . فماخور الست أمينة ليس بالنسبة لجوهر مكانا للمتعة السهلة فهو لم يدخله قط كزبون . ولكنه يشغل وظيفة ذات أهمية كبيرة . فهو يصوغ خطابات الست أمينة . ويكتب أحيانا بعض الخطابات الغرامية للعاهرات الأمميات . ويبدو هذا شيء يتعلق بالكرامة الانسانية . ورغم هذا المظهر المنحط فقد احتفظ دوما بدور المفكر المتكامل الذي حقق أمجاده في الماضي . في ذلك العهد الذي درس فيه التاريخ في أكبر جامعة بالبلاد . ولكن في تلك الآونة لم يكن هذا بالامر المقبول . بكل هذا الجانب الأكاديمي . ولم تكن سببا لوجوده . ففي هذا الوسط تبدو الحياة قبيحة . فجوهر لم يخدع أحدا . ولا يؤمن بكذبات الفلاسفة الكبار التي كان يؤمن بها في تلك الآونة . هذه الحرية الفكرية التي كانت نصيبه من مهنته الجديدة سببت له سعادة غامرة . سعادة رائعة لا حدود لها . ووجد نفسه يترك كل هذا العالم ليعمل في هذا الماخور بأحد الأحياء الفقيرة مما سبب له متعة كبيرة . كم أبعد هذا عن المنازعات

وصراع البشر وأفكارهم حول العقل والحياة . كل هذه الأفكار الكبرى التي أعجب بها طيله سنوات . تبدو له الآن أشبه بحشرات سامية . تجردهم من سلطاته . فإن قيام المرء بتعليم الحياة دون أن يعيشها أشبه بجريمة الجهل غير المرغوب فيه .

أما هذا العمل الذي قبل به فهو أقل عبودية . لا يتطلب مجهودا . لأن مثل هذه الخدمات التي تعد عالية القيمة . تجعل الست أمينة تمنحه من وقت لآخر قطعة معدنية فئة العشرة قروش والتي لا دخل له سواها . تكفيه كي يعيش . فهو يدفع مبلغا بسيطا كأجرة لغرفته . أما بالنسبة لطعامه . فإن تجار الحى يشعرون بالسعادة . وهم يقدمون له ما يسد رمقه . فهم يحبون حديثه كثيرا . يعامله البعض كنبى . ينظرون اليه باحترام شديد لكن جوهر لم يعتمد أبدا على مثل هذه المحاملات . فهو لم يطلب شيئا أبدا . وإذا كان عليه أن يوافق . فإن ذلك يحدث بصورة لا تهين مشاعر هؤلاء الذين يقدمون له متطلباته .

توقف . وأطلق تنهيدة .

يقع خلف هذا السور المغطى بنباتات كثيفة - التي تخفى كل ما يدور بالمنزل - ذلك الذى يوحى بالشراء . ذو واجهة ضيقة صفراء . يتكون من طابقين . وفناء صغير مبنى بالطوب اللبن . تملأ الركام التي تفصله عن الحارة . دفع جوهر الباب الحديدى . وأمسك عصاه من منتصفها . وضبط طربوشه فوق رأسه . ثم صعد السلم الذى يؤدى الى الدور الأرضى بكل الثقة التى منحه الله إياها . كان الباب مغلقا من الداخل . طرق جوهر مرتين بعصاه وهو يكاد يسمع دقات قلبه . لم يسمع شيئا كأنما المنزل خاو . خيم صمت ثقيل على نفس جوهر . ربما ليس هناك أحد لعل يحيى قد رحل منذ وقت طويل . انتابه قلق شديد . وتوقفت كل أعضاء جسمه كأنما أصابها شلل مميت .

بعد فترة طويلة فتح الباب ، تنهد جوهر ، بدت الفتاة التي تقف أمامه أشبه بعروس من الحلوى المغلف بالورق المفضض . ترتدى قميصها من الحرير الوردى . ذا أكمام قصيرة . مطرز بخيوط خضراء وقد بدت علامات الاحمرار الشديدة وقد تغطت سواعدها بسوارات من الذهب . وقد اكسب شعرها الطويل لوجهها جمالا غريبا وحشيا ، أشبه بوجوه تلك الرسومات الشعبية التي تغطي جدران المقاهى البلدية . يزيد لها الكحل الذى تكسو به عينيها جمالا . يعرفها جوهر . فهي نزيلة جديدة ، جاءت منذ فترة قصيرة من قريتها . تقرب من السادسة عشر من عمرها وتدعى أرنية ، منذ أن جاءت وهى محط أعجاب الجميع ، ينتظرونها لساعات حتى تنتهى من عملها .

حياتها جوهر فابتسمت . عندما انفرجت شفتاها بدت كفتاة صغيرة أكثر منها كأمرأة . قالت :

— أنت ، ادخل . لا يوجد أحد . ذهبت الست أمينة الى المدينة لعمل بعض المشتريات وأخذت البنات معها .

دخل جوهر الممر الذى يستعمل كقاعة انتظار . وجد نفسه مرة أخرى — فى مكان ظليل وأحس بتراخ فى أعصابه المشدودة لم يسترح بعد تماما . فهو لم ير يحيى فى أى مكان . سألها :

— اليس يحيى هنا ؟

قالت الفتاة وهى تنظر حولها : كان نائما لتوّه فوق الأريكة ثم خرج .

أحس جوهر بالايجاب . ود أن يسألها عما إذا كانت تعرف أين ذهب يحيى . ولكنه تراجع :

— سوف انتظره . لعله يرجع .

— انتظره . كما تشاء .

— هل أنت وحدك هنا ؟

— أجل . لم أذهب معهن لأننى وددت أن أغسل شعرى . اسقت اننى لم أذهب . فقد ركب عربا حنطور .

بدت مترددة قليلا . ثم دخلت احدى الغرف التى تقع فى الممر . وأغلقت الباب خلفها بينما ظل جوهر وحيدا . ألقى نظره حوله . وأخذ يفتش عن مقعد . فقد كانت قاعة الانتظار عارية الجدران . بسيطة الأثاث . فلا يوجد فيها سوى أريكة فوقها غطاء مزركش واربعة أو خمسة مقاعد فوتيل ومائدة عليها منفضة سجائر . انه نفس الديكور المتواضع للمواخير الموجودة فى الاحياء الشعبية . الآن . وقد انفض المنزل من زبائنه ومن أجوائه المشيرة . ومسرحه الظاهر ، أحس جوهر بالاكنتاب . فاطلق تنهيدة واختار لنفسه مقعدا جلس فوقه . أهاج هذا الخواء الكثيب المنبعث فى الصالة جوهر بطريقة ملحوظة . فهو لم يأت قط فى مثل هذه الساعة من النهار . بدا كل شئ فى البيت غريبا وعدوانيا . وضع عصاه بين سناقيه . ودس قطعة من النعناع فى فمه وبدأ فى امتصاصها بلذّة .

تقلص احساسه بالحشيش بشكل ملحوظ . وأحس بالراحة وأنه موجود فى نفس المكان الذى جاء اليه يحيى . فكر فيه بحنان صادق . فالارتباط الذى يربطه به ليس الحشيش وحده . يكن له شيئا من المودة أقرب بتعلق الفرد بالحياة . فيحيى شاعر بانس . يعيش حياته بلا سعادة أو مجد . يمارس الصعلكة ويوعى شديد . لقد دخل السجن عدة مرات بتهمة تعاطي المخدرات هناك حكايات رتيبة تتناولها الافواه للنيل منه . يشكون فى انه خائن أو أنه يعطى المعلومات للشرطة حول شركائه فى تعاطي

المخدرات . ألحقت به شهرته كمرشد أكبر الأذى بين المتعاطين .
فأصبحوا يحاذرونه . لكن من الصعب معرفة الحقيقة في هذا
المضمار . ولم يحاول يحيى يوما أن يبرى نفسه . مهما كان فقد
ظلت الخيانة بالنسبة له مسألة مزاج وكرم أخلاق . فكل شيء
سواء بالنسبة له . ولم يقلل هذا من شعوره نحوه يوما . فهو
يتقبل كل التناقضات برجولة وتقاؤل . هو انسان بلا كرامة .
وهذا لا يجعل الدنيا تكف عن الدوران . فجوهر يعجب به لأنه
يشعر بلذة الحياة : الحياة بلا كرامة . فان يكن المرء حيا فهذا كاف
لجلب السعادة .

ابتسم جوهر وهو يتذكر الكردي . حين يفرط في متاعبه .
ربما أكثر مما هي عليه في بحثه الدائم عن الكرامة الانسانية :
« أهم شيء بالنسبة للانسان هو أن يفتش عن كرامته » . كل
هؤلاء الناس الذين يبحثون عن كرامة ! أى كرامة ! فليس تاريخ
البشرية سوى كابوس دموى طويل لغيبات من هذا النوع . كان
وجود الانسان حيا ليس كرامة في حد ذاته . الموتى فقط هم
عديمو الكرامة وجوهر لا يحترم سوى الابطال الاحياء . وهؤلاء
- بلا شك - يتخرجون فيما يتعلق بمسألة الكرامة .

ليست المشكلة بالنسبة له أن يعود الى غرفته . فالتناجحات
لازلن يطلقن صرخاتهن . ورؤية هؤلاء النسوة المتوحشات فريسة
لشاعر مرتزقة تصيبه بالرعدة . يحس أن رأسه ثقيلة ومن
الصعب ان يحتفظ بعينيه مفتوحتين . فقد غرق المنزل في صمت
قاتل دفع جوهر ان يغط في النوم لم تعد له رغبة في رؤية يحيى .
ترك نفسه يغرق في النوم . أغلق عينيه وهو يحاول إيهام نفسه
بالتعب .

مرت فترة طويلة لدرجة أنه لم يسمع الفتاة تفتح الباب :

- هل نمت ؟

فتح جوهر عينيه . رأى أرنه واقفة بلا حراك أمام عتبة
الباب . يرسم ضوء النهار المنساب عبر أقمشة رداءها خطوطا على
جسدها العارى المنتصب . تردد جوهر لحظة . اعتقد أنه يحلم .
ثم قال :

- لا . وانما أستريح قليلا .

قالت الفتاة : أود أن تكتب لى خطابا .

تقدمت نحوه . منعمة في ضوء الباب وكأنها تدفع النور
المتخافت حولها . وكأنها أثار الظلام عريها . فدعك جوهر عينيه ،
أثاره هذا المشهد الغريب . وقفت الفتاة أمامه . وقد ارتسمت
على شفثيها المزوجتين بأحمر الشفاه ابتسامة جذابة . بدا عليها
أنها فتاة تختلف تماما :

- لمن تريدن أن أكتب خطابا ؟

- الى عمى فى البلدة . لم اكتب اليه منذ جئت هنا . ولعل
القلق أصابه .

آثر جوهر الصمت . ليست كتابة خطاب بالشئ السهل فى
هذا الوقت . فهو غير قادر على التركيز ولا على أن يمسك قلمه . وقد
سبق أن رفض طلبا مماثلا من قبل . ظهرت أرنه كى تقتل
شكوكه بأسلوبها الخاص وهي تقول :

- سوف اكافئك .

قال جوهر : سأكتب لك الخطاب . هل لديك ما يلزم ؟

قام بصعوبة . وتبعها الى غرفتها . انها غرفة عامرة غالية
الثلث . بها سرير حديدى كبير . واريكة . ومقعد ودولاب ذو

مجرة • شم البودر والروائح الغالية • غطى السرير بملاء خضراء
كستنائية • تبدو مستوية • فالعمل لم يبدأ بعد • اسرع جوهر
وأغلق النافذة • فاعصابه تبدو ساكنة في الظلام • وهذا هو الحل
الأمثل للهروب من الألم • فتشت أرنبه في الدولاب عادت ومعها
وريقة وقلما أعطتها لجوهر • ثم جلست على طرف السرير • وبدأت
في تأمله وقد انتابتها غريزة فضول غريبة •

ترك جوهر جسده يخور فوق الأريكة • ووضع عصاه قريبة
منه • ثم تاهب للكتابة • انتظر أن تمليه ما تود كتابته • لكنها بدت
كأنها نسيبت سبب حضوره • وإن الأمر لا يعدو مزاحا • عادت
إليها ابتسامة الفتاة الصغيرة المتقلبة •

هل تود أن ترى يحيى ؟

رد جوهر : أجل ، أريده في مسألة عمل •

— هل الأمر عاجل ؟

— عاجل للغاية ، ولكن لا يهم • فحتمًا سيعود •

— أنا أسفه لأنه ليس هنا • لعله سيبتأخر •

لم يعد جوهر يحتمل آله • لقد أثارت كل حميته وهي تنطق

باسم يحيى • سألها :

— هل تعرفينه جيدًا ؟

— من ؟ يحيى • أنه كثيرًا ما يسلمني • يبدو أنه شاعر كما

يزعم •

— قال جوهر : انه شاعر كبير •

— غريبة ! حدثني • هل يعتاد الشعراء طلب النقود من

الفتيات ؟

أثار كلاهما انتباهه فجأة • لم يعرف أن يحيى ينتهج هذا
الأسلوب • فهذا أمر جديد عليه •

— لماذا ؟ هل طلب منك تقودا •

— أجل • فقد حكى لي قصة تتعلق بأمه • يبدو أنها ماتت
وأنه في حاجة لنقود من أجل مراسيم الدفن • قال أنه يحتفظ
بالجثة منذ أسبوع • ما رأيك ؟

حاول جوهر أن يطلق ضحكته — رغم مأساوية الموقف —
يعرف أن الحكاية ملفقة • وإن قصص يحيى الخيالية يمكنها أن
تبتز النقود من معجبيه • فعندما يتعلق الأمر بالنقود فعلى خياله أن
يلتهب • خاصة إذا كان في الأمر شراء حشيش •

— وهل أعطيتينه ؟

— ردت الفتاة : لست غبية ، فانا أرسل كل ما أكسب
لعلى الذي رباني • وقد حذروني من النصابين •

قال جوهر : أنت فتاة جادة •

قالت الفتاة ضاحكة : هل تسخر مني ؟

— أبدا • أنا واضح •

فكر جوهر في المشاعر المتقدة التي أوقظت فيه دائمًا إبعاد
حياة يحيى والتي جعلته يفرق في أدق تفاصيل حيوات المجانين •
فوراء هذه القصة توجد حقيقة مؤلمة يصعب تجاهلها • لقد وصل
يحيى إلى حد أنه يريد توفير النقود فوق أشلاء أمه • وهذا لا يسبب
له أى دهشة بأى معيار • يتخيله يفعل أشياء أكثر جنونا • وهذا
يعنى أنه يبحث عن مصادره • فهو محظوظ لأنه يفتقد الحشيش
دائمًا عنده • وجوهر يحسده لهذا الاكتشاف • ود جوهر أن

يغادر الغرفة . وان يهرول بحثا عن يحيى . ولكنه لم يفعل شيئا .

نظر تجاه الصغيرة .

كانت جالسة على طرف السرير . وقد باعدت بين ساقها . لفت متزرها حول جسدها . وبرز صدرها الناهد عبر القماش الحريري كأنه الرمان الناضج . تأملها جوهر بنظرة ناقبة . متأملا جمال الفتاة . ترسم ابتسامة تائية على شفثيها المصبوغتين فتبدو كأنها تلقى في شباكها . اختنق جوهر . فاقتراب مثل هذا الجسد البض قد يشعل فيه رغبة بالغة الحدة . فمنذ زمن طويل لم يرغب في امرأة . وقطع كل اتصالاته مع كل الخلق . وأصبحت حياته مكرسة للأشياء الأكثر بساطة . لم تكن خاضعة يوما لمقياس العواطف . استمرت بلا ألم . أشبه بحلم صاف . لا حاجة للمخدر . ومن جديد طرقت حاجته للمخدر داخل وعيه فأردته ضعيفا . كم من الوقت عليه أن ينتظر ؟ يشعر ان أعضاءه سوف تخونه . وستصبح رخوة بلا مقاومة . ويلزمه مجهود شاق كي يتغلب على نفسه وأن يسيطر على الرغبة التي تجمع في جسده . وعليه أن يقتل شكوكه بسرعة .

— متى طلب النقود ؟

ردت : هذا الصباح . تحدثنا معا قليلا . بدا حزينا وضعيفا .

لم يساوره الشك . فيحيى لا يفقد حزينا وضعيفا . الا عندما يفتقد المخدرات . انها الحالة الوحيدة التي يضعف فيها تفاؤله . ود جوهر أن يبعد اليأس عنه . لكن الثقة التي أولاهها ليحيى قد انقذته . وعلى كل فسوف يتصرف يحيى من أجل توفير مخدره .

فله ألف طريقة للتصرف . وجوهر يؤمن بالمعجزات . ليست المعجزات العظيمة . ولكنها المعجزات العادية البسيطة الحياتية والمخدرات هي إحدى المعجزات .

— ماذا تودين أن أكتب الى عمك ؟

تخلت ارنه عن ابتسامتها وسلوكها كفتاة صغيرة . وكست وجهها بملامح الجدية والعمق وقالت :

ما يكتب في مثل هذه الحالات . قل له أنني على مايرام . وأننى معجبة بهذا المكان . وأعمل كثيرا . أعتقد أن هذا يكفي .

أخفض جوهر رأسه وبدأ في الكتابة . لكنه في الحقيقة لم يستطع أن يكتب شيئا . وضع الورقة فوق ركبتيه . وأمسك القلم بأصابع مرتجفة . وأفعم أفكاره كي يجد جملة يبدأ بها . فهذا الرجل ليس عمها . كيف لعاهرة أن تكتب لعمها ؟ تردد جوهر بين صياغات عديدة . فهو لم يعرف قط كيف يمكن تبادل المشاعر العائلية .

رفع رأسه مرة أخرى ونظر الى الفتاة . فالرغبة التي انتابته منذ لحظة لم تترك فيه أى أثر . لقد فقد هذا الجسد المنساب فوق الفراش الأخضر بصورة مثيرة جاذبيته . واستولى عليه خاطر هو السوارات الذهبية التي تحوط ذراعى الفتاة العاريين .

تمثل السوارات الذهبية بالنسبة له شعورا خاصا . لم يبعد ناظره عنها . وخلال بضع ثوان أحس بالاضطراب . وضع يده فوق جبهته وهو يرتجف . مقاوما كل رغباته ضد هذه الأفكار الكريهة التي تجثم عليه رغما عنه . حاول أن يطردها عن تفكيره بيأس واضح ولكنها قاومت كل ابتهالاته . فهذا الذهب يساوى كمية لا بأس بها من المخدرات . وتضمن له أن يعيش في مزاج

كامل شهورا طويلة . ربما لسنوات . حاول جوهر ان يحدد كمية المخدرات التي يمكن أن يشتريها بمثل هذه الثروة ، لكن جسامته موقفه أشلته ، فتوقف عن حساباته وعاوده حلم السفر . لم يعد أملا بعيدا ، لقد أصبح الآن أكثر قربا . أصبح السفر الى سوريا حقيقة ملموسة . تخيل أدق تفاصيل الرحلة الى بلاد الأحلام حيث ينمو الحشيش في الحقول كالخشبائش . غزا الاغراء مخه بصورة من العالم الآخر ، ورأى نفسه يرتقى على الفتاة وينزع منها سوارتها . في نفس اللحظة التي حركت أرنبة ذراعها وهي تهب الحلبي الذهبية وسط صمت الغرفة . خرج فجأة من أحلامه وشرع في الكتابة بكل حماس .

انتاب أرنبة زهو . لم تشك لحظة في موقف جوهر الغريب . تعرف انها حسناء . وبدا لها ارتباك الرجل بسبب تلك الرغبة التي ولدتها فيه . فتاة قروية وساذجة ، لا تعرف شيئا بالمرء ترى ان رغبة جوهر هي الشيء الوحيد لارضائه وعليها أن تكافئه .

ظل جوهر يكتب وهو يحاول أن يتماسك . حتى العبارات التقليدية لم يستطع صياغتها انتابه قلق شديد . غرق لحظة في محاولة عبثية لابعاد العنف عن ذهنه . فالعنف هو الشيء الوحيد الذي لا يخطر بباله . كيف حدث هذا ؟ أحس انه ليس جوهر . وان شخصا آخر يدفعه في مغامرة لارتكاب حماقة تنخر في نفسه .

- لا تنس أن تخبره أنني سأرسل له نقودا قريبا .

اختلج جوهر وهو لا يعيرها انتباها ، تسربت الفتاة قريبة منه فوق الأريكة . أربكه وجودها الى جواره . تملكه خوف وقال :

- أي نقود ؟

- ألا تعرف أي نقود ؟

- بالطبع . بالطبع . معذرة ، فأنا مرتبك قليلا .

لم تتصور أرنبة أن سحرها يمكن أن يثير جنون رجل الى هذا الحد ، دفعها غرورها الى المزيد . فبعد الظهيرة أعلن عن نزهة ممتعة في عربة حنطور مع الست أمينة وبنات الماخور . وكم أحسست بالأسف لحظة . أما الآن فانها تجد هذا أفضل . اقتربت من جوهر وأحنت رأسها تحاول أن ترى الرسالة من أعلى كتفه ، داعبت وجنته متعمدة . وعندما ارتبكت كل أعضائه أدركت أنه بلغ النشوة . فاطلقت ضحكة طفولية مليئة بالعصبية ، وقالت :

- أنت تكتب جيدا ، اذن فقد ذهبت الى المدرسة .

رد دون ان ينظر اليها : أجل ، وانت . ألم تذهبي الى المدرسة ؟

قالت أرنبة بصوت مليء بالازدراء :

- لماذا أذهب الى المدرسة ؟ أنا غانية .

قال جوهر : أنت على حق . لم أسمع كلاما مماثلا من قبل .

- أنت تسخر دائما مني ، ولا يهيك ، فانت لطيف .

اقترب الخطر أكثر . تملكه نوع من الذهول ازاء جاذبية السوارات الذهبية ، لم يعر لمسات الفتاة انتباها . فهذه السوارات تمثل بالنسبة له قيمة لا تقدر بثمن ، أنها تمثل المخدرات التي يفتقدها منذ الصباح .

أنهى رسالته بسرعة وسألها : هل تعرفين التوقيع ؟

قالت : لا ، اكتب اسمى فقط . اسمى أرنبة .

قال جوهر : أعرف ، وهو اسم جميل .

وقع الرسالة . سال الفتاة عن عنوان عمها ودونه على المظروف . لقد انتهى الآن ، ويستطيع ان يذهب ، ويهرب من هذا الاغراء الأبدى . قال :

- هالك الخطاب .

- أشكرك . احتفظ به معك . ضعه فى صندوق البريد .
سأعطيك ثمن الطابع . .

لم يجرؤ على الحركة . لا يعرف أى رباط يربطه بالأريكة . يموت من الخوف وهو يسمع خشخشة السوارات ، وكأنها ارتبط وجوده بهذه الضجة المثيرة . شك لحظة ان الفتاة تعتمد هز ذراعيها . هل لاحظت شيئاً ؟ لا . انها سوف تملأ الحى بصراخها . وهى ليست بالغة القوة كى تتسلل بمثل هذه اللعبة .

قامت أرنبة ، وسارت فى الغرفة . ثم انفجرت ضاحكة واقتربت من جوهر قائلة :

- يمكنك اذا شئت .

أحس أنه يفرق ، مثلما حدث فى حلم الصباح . وان فيضان النهر يفرقه فى أعماقه . حاول يائساً أن يسبح ، ان ينقذ شيئاً من صفاته . لكن بلا جدوى . لاشئ يمكنه أن يتركه فى سلام . تملكته رغبة متوحشة ان يمتلك السوارات . مقاوماً وعيه . ورأى - داخل هذيانه وخلف هذه السوارات - حقول الحشيش الواسعة

المنبسطة بلا نهاية تحت السماء . كانت الرؤية حادة وسريعة . توقف جوهر عن التنفّس . فكر أنه سيرتكب جريمة . وقد بدا له هذا أمراً بسيطاً سهلاً . أجل عليه أن يقتل الفتاة . لم ير أى وسيلة أخرى كى يخلصها من هذه السوارات . ملأه هذا اليقين بهدوء مخيف .

علا القلق وجه العاهرة الشابة . لم تعد تبتسم ولأول مرة ألقت على جوهر نظرة يملأها الشك وبدأت أسباب هذه الرغبة التى لم تفهمها مثيرة للقلق . لكن لم يدم قلقها طويلاً . فبيبض شديد خلعت مئزرها وألقت بنفسها فوق المقعد . وبدأت رائعة أمام عيني جوهر الزائغتين . اقتربت منه وأمسكت ذراعه وأرادت أن تجذبه .

- تعال . هيا ، بسرعة .

خلص جوهر نفسه منها ، بينما أصدرت السوارات ضجة أشبه بالرعد ، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان . انسال على جسده عرق بارد . ارتعد ، قام فجأة وسحب الفتاة ناحية السرير وهجم عليها . أطبق يديه على عنقها قبل ان تتمكن من الصراخ . فتحت عينيها الواسعتين اللتين اعترتهما دهشة غريبة . لم تفهم ماذا يحدث . لم يحتمل جوهر نظرتها . ضغط بأصابعه بكل ما يملك من قوى . مدت الفتاة ساقيها نحو الأمام فى حركة دفاع أخيرة . أغلق جوهر عينيه ، ران صمت طويل . ملئ بالظلمات . بينما استمر فى خنقها . حتى سقطت رأس الفتاة محدثة ضجة . لقد ماتت .

قام بصعوبة وهو يلهث . تمدد جسد أرنبة العارى بطول السرير فى وضع يثير الرثاء . عليه الآن أن يخرج السوارات . وهذا

هو أصعب مافى الأمر • رفع جوهر ذراع الفتاة وأمسك إحدى السوارات • وأراد أن يزلها من معصمها • ألا أنه أحس بصدمة • استرد وعيه فجأة وأطلق صرخة مليئة بالآلم •

سمع صوتا مكتوما • فالسوارات ليست سوى حل مزيفة • انها ليست من ذهب • وجوهر يعرف ذلك دوما • ويمكن لأى طفل صغير أن يميزها • كيف ارتكب خطأ جسيما كهذا ؟ لم يجد تفسيراً • ربما ان هذه السوارات تساوى قروشاً زهيدة اشترى بثمنها جريمة قتل •

أنه الآن بالغ الهدوء • فقد تخلص تماماً من الصدمة • ترك جثة الفتاة • واستعاد طربوشه الذى سقط فوق السرير ووضع الرسالة فى جيبه ثم توجه نحو الباب • كانت قاعة الانتظار خاوية ومظلمة تماماً • يبدو أنه لم يأت أحد أثناء هذه الفترة • نزل جوهر السلم ببطء • وخرج الى الحارة وقد بدا طبيعياً • وحيا أحد المارة الذى لا يعرفه بهزة بسيطة من رأسه •

بعد كل هذه الحكاية • فهو لم يعثر بعد على يحيى • أين يختبئ يحيى إذن ؟ هذا هو السؤال الذى يؤرقه طويلاً •

(٣)

تسلل الضوء من مصباح الغاز حتى أطراف المائدة • حاول يحيى بعينه الضعيفتين أن يمسك وجه أمه القابع فى الظلام • لا يرى منها سوى يديها العجفائتين • وهى ترفى قميصاً رجاليا • عليها أن تنجز بعض العمل من أجل أسرة برجوازية فى المدينة • يشعر باهانة لأن أمه تمارس مثل هذا العمل • خاصة ان هذه الاهانة تكسوها بالحزن • بالمهابة والجدية فى حركاتها • وكأنها تبذل عالماً غامضاً وأفضل • تبدو وكأنها ستنقذ بهذه الاكذوبة أسطورة البؤس الجدير بالوقار • يالها من خدعة • ماذا يدفعه هذا المساء كى ينظر الى وجه أمه • لعله يشبه وجهه • فتح عينيه باتساعهما • حلق فى هالة الضوء الساقطة من المصباح • لا شئ • ظل وجه أمه غامضاً • ينادى فى أعماقه • حاول أن يتذكر ملامحها • من الصعب بالنسبة له أن يحدد الصورة بالضبط • كأنها ثقب أسود لم ينظر اليه طيلة هذه السنوات • وقف عاجزاً أمام ذاكرته التى أصابها عدم تام • أراد أن يطلب منها أن تقترب قليلاً ناحية الضوء • ولكنه

تراجع • فهو لا يود أن يزعجها • ينظر إليها بود • لعلها كانت
بالغة الجمال • أما أنا فأشبهه أبى • لا يذكر أباه جيدا • وهذا أيضا
شيء غريب • هؤلاء الناس أتوا به الى الدنيا • وعاش معهم سنوات
طويلة • يبدو الآن أنه لم يراهما عن قرب •

لماذا يهتم فى ذلك المساء بمسألة دمايته ، فهو لم يعتد النظر
فى المرأة • ربما يخاف • هل بدأت أخاف فجأة • ضحك ساخرا مرة
أخرى • الاقدار ! انهم يسخرون منى فى الصحف والمجلات الأدبية
التي تصدر فى العاصمة • اصبح موضع سخرية كل الشرق
المتقف • هؤلاء الصحفيون الاقدار لا يتركونه فى حاله قط • يمسون
دائما شيئا خاصا فيه عندما يكتبون عن دمايته فى مقالاتهم القذرة •
نشر أحد رسامى الكاريكاتور صورته تحت عنوان « القبح مجسدا »
واجه يحيى هذا الهجوم بضعف وخوار • كأنه طفل صغير • هل
يتصور هؤلاء الأغبياء انهم قادرون على وضعه داخل هذا الاطار ؟
انهم لا يعرفونه • فدمايته سر قوته •

لعل هذا يمكن ان يدور فى كل مكان ، ولكن ليس أمام قاض
فى محكمة • هناك وجد نفسه ضعيفا غير قادر على الدفاع عن نفسه •
حتى محاموه المساكين عجزوا عن الدفاع عنه • فقدوا كرامتهم
أصابهم الخرس فجأة • تخطيطوا فى دفاعهم دون أن ينظروا اليه •
يالهم من عصابة أفاكين • يحتقرهم أكثر من الآخرين • عدا واحدا
منهم ترك له ذكرى لاتنسى • رجل شجاع على خلق عال • يتكلم
بوجهه كما يفعل العباقرة • وطوال ساعة لم يضحك القاضى خلالها •
بدا كمن يكتنم ضحكة وكأنه غير قادر على الفهم • انتهى المحامى
وسط صمت مدهش • لم يصدق القاضى أذنيه • نظر حوله كأنه
خارج من حلم واسترد وعيه أخيرا ونطق بالحكم •

كان الحكم هذه المرة أشد قسوة من المعتاد ، ثمانية أشهر •
ولكن يحيى كان سعيدا وبدأ يتصرف كأن شيطانا مسه •

لم يكن السجن شيئا بالنسبة لروحه القادرة على تقبل كل
الظروف • كان نوعا من الراحة بعد تعب من حياة الصعلكة • يتذكر
مكتبه وهو يجلس خلفه • هذه الوظيفة ذات الأهمية أتاحت له
بعضا من حرية الحركة • يتصرف كمدير كبير • لا حدود لمقدرته •
يستقبل التهاني • كان هذا شيئا رائعا ، لكنه سمح ليحيى ان
يتسلى كثيرا • فبمجرد وصوله الى المبنى القبيح أثار قلق الناس •
وسرعان ما قوبل بعاصفة من الفرحة • يملأ المكان بكناته وروحه
المرحة • حتى السجناء فقدوا عجزتهم المعهودة • وتركوه
يتصرف كما يشاء ، أما مدير السجن - الذى طالما أعجب بأشعاره -
فقد كان يجد المتعة فى الحديث معه • استقبله فى مكتبه استقبال
وزير • وهكذا كانت حياة يحيى فى السجن أشبه بحياته خارجه •
وربما أفضل • كل ما يطلبه يجده • الطعام والراحة وربما أكثر •
أصبحت الحرية مفهوما مجردا • حتى الحشيش لا يخشى شيئا من
ناحيته فهو موجود فى ردهات السجن مثلما يحدث فى المدينة •
ويمكن تداوله بألف وسيلة • خاصة النقود •

أكسبته شهرته كشاعر مكانة مرموقة بين زملائه الأمين • فهو
الذى زواج المساجين فيما بينهم • لقد حمته دمايته من الخطر
الحقيقى • كان يجب أن يكون ضريرا حتى ينغمس فى الملذات •
ولحسن الحظ لم يكن هناك ضرير فى السجن •

من جديد ود أن يخترق سر هذا الوجه الذى يختفى فى
الظل • يتلاشى كل شيء أمام نظره الضعيف • هل يبعد المصباح ؟
خلقت هذه النقطة المضيئة فيما بينهما صحراء لا حدود لها عرقص

قدميه فوق المقعد وأطلق آهة طفل مريض . لم يحدث تغيير على الجانب الآخر من المائدة فهي لم تتحرك حتى الآن .

قال مغالبا نفسه :

- أماء ..

ظلت صامته ، لم يستطع أن يخلصها من المعاناة والتعب الذي انغمست فيهما ، استمرت في رتق القميص . ياللعجوز المسكين التي تمارس عملا حقيرا لكنه شريف . يؤكد كل سلوكها ان هناك مهنا شريفة . كم أعطته دروسا أخلاقية . لكن من تتصوره ؟

- أماء .

لاحظ فجأة توقف الأصابع . لاتزال ابرة مغروسة في القميص . يسيطر على الغرفة صمت مميت . وتلزم الام الصمت دوما ، يقال انها تخشى الكلام حتى لاتفقد سحرها . خرجت أخيرا من صمتها وقالت :

- ماذا ؟

- قولي لي . هل كنت جميلا وانا صغير ؟

باللسؤال الخبيث ! يعرف أنه يثير موضوعا مرعبا . ماذا ستفعل ؟ هل تبكي أم ترد ؟ لايمكن أن يحدث الألم الذي يسببه . فهو لا يرى سوى يديها العجافتين . موضوعتين الآن على حافة المائدة . أراد أن يربكها أكثر ، تقدم بوجهه من ضوء المصباح كي يمكنه أن ينزع ذلك القناع الآلامي البائس . انها الآن غير قادرة على الحراك ، أمسكها ابتسم وهو يكشف أسنانه الطويلة التي أكسبت وجهه ملمحا وحشيا . فعلا . لا يوجد أفضل من اسعاد قلب أم . بدت كأنها تخرج من غفلة طويلة ، نظرت الى ابنها بحب

وحنان . رجل في الخامسة والثلاثين أضاع حياته كطفل . أكثر وعيا ، وأكثر متعة من طفل . أبدت ترددا في أن يحيى قد يتصرف برقة وهي تفكر : « عليها ان تبذل أقصى ما بوسعها » لايشك لحظة في ردها :

- ماذا يا أمي ؟

قالت : أجل . كنت جميلا .

مستحيل . كيف تغيرت الى هذه الدرجة ؟

قالت : لم تتغير .

لعلها مجنونة . حاول يحيى أن ينظر الى المرأة . آمن للحظة بالمعجزة التي شوهت وجهه . لا . الأمر أكثر بساطة من ذلك . عليه ان يعرف ان عيني أمه أشبه بعيون المها . وان هذا ليس وهما ولا شفقة . انه رد من أم حانية . أحس انها سعيدة بردها . وانها تؤمن به بكل صدق .

- وأبي ؟

- ماذا عن أبيك ؟

- هل كان جميلا ؟

- كان أبوك رجلا نبيلًا .

- يالها من نكتة .

غرق يحيى في الفرح . كم من مرة قالت ان أباه كان رجلا شريفا . ومع ذلك فغلظتهما انهما أورثاه التعاسة . وريث أسرة كبيرة تملك عقارات . بذر نقوده في القمار وطقوس العريضة .

حين مات لم يترك سوى الديون . كان يحيى فى تلك الآونة شابا صغيرا . لم يمسه موت الأب كثيرا . فهو لم يعرف الحياة التى عرفها أبوه . رجل شرفى حقا .

لم تكلمه أمه أبدا عنه . ترى ان هذا موضوع لا يليق الكلام فيه . فيجب الا يدان زوجها . أمنت ان معاناتها من زوجها نوع من القدر المحتوم تحسد عليه . لم يسمعها يحيى تقول عنه كلمة سيئة يوما . تردد أن زوجها رجل شريف . فكر : تغفر الثروة كل شيء . تعجبها حماقاتى لأنهن يعبين أجواء المآسى ، مسكينة . ليس لأحد الحق ان يكون سىء السلوك . وهذه البديهة هى الحقيقة الوحيدة على الأرض بالنسبة لها .

وكى تستمر ، فإنها تمارس الآن هذا العمل المثير للخرى : ترفاً ملابس الأسر الثرية التى ترمى لحالها . مرت كل سنوات الكفاح المرير مع هذا الابن العاق بلا جدوى . ولم تغير من رأيها عن سلوك زوجها ألم يكن رجلا ثريا وقورا ؟ وهذا يغفر له كل شيء . هذا النوع من الوفاء صعب الوجود بالنسبة ليحيى . انه الشيء الوحيد الذى يجعلها تتعلق بالحياة . فذكرى الميت ليس لها هدف آخر سوى مزج هذا الاحترام الواجب بالثناء .

فى هذه الغرفة التى تقع فى القبو ، ذات البلاط الكبير ، والتى غطت الرطوبة حوائطها تتمثل عقونة الطبقة البرجوازية رغم تفكك قطع الأثاث ، ويبدو الفقر ماثلا ، بين هذه الأشياء الغريبة الغارقة فى الظلال يوجد دولا ب بجوار الحائط نجحت نقوشه فى انقاذه من التسوس ، يوحى الدولا ب بجو من الغموض يثقل فوق يحيى . يفضل ان ينام فى الشارع بدلا من النوم فى هذا المسكن الفقير

الذى ينذر بالوقار . يبدو ان الدولا ب - المكون فى الظلام - يهدده بارتفاع قامته . يرتعد يحيى فالجو بارد . ولا شيء يمكن أن يدفى هذا القبو الثلج . حتى رشفة الكحول التى ارتشفها . أحس بالحزن يغزوه . انه يثقل عليه عندما يجىء لزيارة أمه . البارة فى فن تقطير الحزن . تنسج الحزن مثلما ينسج العنكبوت خيوطه .

حمحم يحيى كى يتخلص من البرد . أحس بساقيه ترتعدان . وان شيئا ناعما يوخزه . أين يختفى القط ؟ انحنى كى يمسكه وضعه فوق ركبته وبدأ فى مداعبة شعره . ارتجف الحيوان الصغير . وهو ينظر اليه بحدة . تسلى يحيى يوما بأن أعطاه قطعة من الحشيش . ومن يومها . وكلما اتاحت له الفرصة يكرر نفس الشيء . انه بالتأكيد القط الوحيد الذى تناول مخدرات . بدأ فى العصبية وود لو خر بش . وجد يحيى نفسه فى موقف حساس . فهو لا يملك سوى قطعة صغيرة من الحشيش . ولن يقتسمها مع القط . فلنكل مداعبة حدودها . لكن كيف يجعله يفهم ؟

تخلص من القط ، ومن جديد نظر الى أمه . التى استسلمت لحلمها الداخلى . لعلها تحلم ان تعيش مع ابنها - ابن شريف ويعمل - يكمن وجودا فى كرامته واحترام القوانين . يأمل يحيى هذا الحلم ويمكنه أن يخمنه ويجسد صورته . فكر فى نفسه وعبقريته . اذا شككت يوما أنه سيبدأ فى ادخار النقود من أجل دفنها . حاول ان يبلغها بذلك . لكن هل تلعه ؟ لم تمنحه هذا الامتياز يوما . لعنة أم ! لم يستطع يحيى أن يمنع نفسه من الضحك .

توقفت فجأة عن التطرير . علتها الدهشة وبدأت كأنها صدمها شيء :

- أراك تضحك يا بنى !

- هل تريد أن أبكى ؟

- ألسنت خجولا من سخرتك من حالتى ؟

- أبدا يا أمى . لقد ضحكك من خاطرة جالت بى .

قالت بمرارة : لا أستطيع أن أفهم . كيف يمكنك أن تضحك

فى هذا البيت البائس ؟

لا يمكن أبدا أن تغفر له سخرته من حالتها . أنه لا يأخذ

الأمور بجدية . أرادت أن تراه خجولا . يعيش حياته فى ملل .

فالحال بائس . وكيف يسخر منه ؟

لقد حان الوقت ليذهب . بدأ الجو فى الاختناق . غاص فى

مقعده . وانغمس أكثر فى الظلام ، ضحك ساخرا . فحتى الآن

لم يقبل على الشئ الصعب بعد . قال بصوت أجش :

- أمى !

فطالما أنها لاتود أن تراه يضحك . فعليه أن يبكى :

- ماذا تود أيضا ؟

- الا تعطينى خمسة قروش يا أمى ؟

أطلقت تنهيدة . وقالت :

- أيضا ! متى ستفهم اننى فقيرة ؟

- أعرف يا أمى !

- يبدو أنك لاتعرف .

- لا أعرف . لقد طلبت منك كثيرا .

- أيها المجنون . يا الهى . أقول ان أباك كان رجلا شريفا
للفاية !

هذا شئ مثير للثناء . لقد عرف يحيى هذه الحدوته . وعليه
ان يسمعها كاملة . وأن يفاوض حتى النهاية :

- اتركى أبى فى حاله . أريد هذه النقود .

- ليس معى سوى أجرة المنزل . اذا أردت أن تأكل . فهناك
شوربة عدس .

يتناول هذا الحساء . أبدا من الأفضل ان يموت جوعا . عن
تناول هذا الحساء الذى تطهوه أمه . والذى يعد أحسن ما تقدمه .
تفوح منه الرائحة العفنة التى تنم عن حالهم . لا يمكنه ان يأكل
أبدا . يمكن ان يتحمل كل الاهانات . الا العدس . ثم ان الأكل
لا يهيم كثيرا . قال :

- أنه غير صالح للأكل

- ليس عندى فراخ . للأسف كى أقدمها لك .

لست أبالى بالفراخ يا أمى . كما اننى لست جوعانا .

تعرف أنه يتعاطى الحشيش . لكنها لا يمكن ان تصدق ، فهى
تفضل ان تناقش أشياء عبثية مثل هذه الشورى التى تريده ان
يلتهمها عنوة . فيم تفكر . تصورت انه يريد النقود كى
يشترى حشيشا . ذكره هذا بما حدث بعد الظهيرة . أصابته
الرغبة . قابله شرطى فى الشارع . وسلب منه قطعة حشيش
كبيرة بادعاء تفتيشه . لم يستطع الدفاع عن نفسه . هؤلاء الشرطة
الملاعين . يأخذون كل هذا الحشيش ويغرقونه فى النهر ! غباء .
عليهم إعادة بيعه فى السوق وبسعر أعلى .

من الواضح انه بعيدا عن الحشيش والطعام فالانسان في حاجة الى بعض المصروف . فوضعه كمتطفل وصعلوك لا يمنع يحيى ان يكون مسرفا . بل على العكس ربما ورث عن أبيه حب المصروف الكبير . يجب ان يدفع بسخاء للآخرين . وان يساعد من هم أفقر منه . جوهر على سبيل المثال يعرف ان جوهر صفر اليدين دائما . وانه لا يطلب شيئا أبدا ، مسألة كرامة مع بعض الفرق . يشعر ان عليه ان يساعده في وضعه الراهن . وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي يخفى بها دماسته الخلقية والجسدية . الوجود الحقيقي الذي يشعر فيه بالنعمة الصحيحة . يعامل البشر كما هم . فليس جوهر مصلحا ولا داعية . وهذه الخصوصية التي عرفها عنه لم يجدها في أحد . فأغلب الناس يميل الى اسداء النصائح . بالضبط مثل أمه . أو في الواقع فان أمه تشبه أغلب الناس .

يخشى ان تسخر أمه منه ، لا . لم يكن شريرا معها . تدافع عنه بطريقتها وببعض المراعاة انها الأكثر قوة . ولا توجد قوة في الدنيا يمكن أن تززع من ايمانها بالامها . غارقة في خزنها . لاتفهم انه يمكن ان تضحك رغم كل التعقيدات الهائلة .

يعرف انه سوف يقنعها باعطائه نقود . تحاول ان تجعله قريبا . منها . تؤمن بالعدوى . وان كل هذا الحب والعاطفة الأسرية ليس لها من هدف سوى ان تجذبه الى متطلبات الفقر . يا للمرأة المسكينة . لاتعرف انها ولدت صعلوكا متفائلا .

يكفى هذا الآن . لقد منحها الوقت الكافي .

ظلت بلا حراك فترة طويلة . تحاول ان تتماسك . ستفقد يومها . هذا الولد العاق . لكنه الرباط الوحيد الذي يربطها

بالأحياء . لن تنجح يوما ان تجعله يمشى في الطريق الصحيح . ينزل دائما من أصابعها . ويصعب الامساك به . سقط بين برائن الشيطان . الشيء الوحيد الذي تحتفظ به له هو ضحكته . هذه الضجة الأشبه بسفينة وسط قريها . لاتستطيع ان تفهم هذا الاحساس أمام ما يبدو لها الكرامة الوحيدة في العالم . وهو الامتثال للأحزان . تسكن في هذا المكان الحقيير منذ أمد طويل وهي تسمع ضحكاته أكثر رعبا من صرخة انسان ثوري . يمكن ان يتقبل الثوري . ولا يمكن قبول السخرية .

لم تشك أبدا أنه لا جدوى من كل هذه التضحيات . وان النقود هي أقل ما يمكن ان تقدمه لقد حرمت نفسها لأجله . لم يبق أمامها سوى حياتها كي تمنحها إياها . لماذا لا يأخذ حياتها اذن ؟ واذا جاء يوما كي يقتلها فانها ستنتظره بكل ما تملك . قالت :

- اعتقد أنك ستقتلني يوما .

- لا . يا أمي . يالها من فكرة مأساوية ! فالحياة أسهل من هذا . أعطني النقود وسوف أذهب ، أوكد لك أنه لا مأساة هناك . أين ترين المأساة ؟ انت الوحيدة التي تؤمنين ان الدنيا شيء جاد ، الدنيا مبهجة يا أمي . وعليك ان تخرجي وتنزهي قليلا .

نظرت اليه غير مندھشة ، كأنها سمعت كلاما مجنونا اعتادت سماعه منذ أمد طويل . ماذا يفعل . يا إلهي . أطلقت تهيدة وقامت مترددة . كأنها تستند على عكاز خفي . غاصت في ظلام الغرفة . رآها يحيى بصعوبة . عادت بعد لحظة . ووضعت قطعة معدنية فوق المائدة .

- خذ ، واشرب من دمي .

يا للمرأة المتزمتة . خسارة ان العالم لم يشهد مثل هذا
المشهد التمثيلي . مشهد حقيقي يجمع بين طفل عاق وأمه . يجعل
هذه الدموع تتساقط . ضحك يحيى وأمسك النقود بين يديه
ووضعها في جيبه . وقام ليخرج .

— سلام عليك يا أمي .

قالت : اجلس لتأكل هناك حساء لذيذ .

— لست جوعانا الليلة . لكنني أعدك أن أعود مرة أخرى
لأصبحك الى مطعم فاخر . ثم نذهب الى ناد ليلي . الا يعجبك
الذهاب الى ناد ليلي وتشاهد الرقصات . سترين كم ان
الحياة حلوة .

خرج من القبو . كأنه غريق خارج من حفرة مليئة بالنطين .
تنفس هواء المساء بمتعة . أخيرا تحرر من وقاره القدر ! فكل شيء
يدور في هذه الغرفة مزيف تماما ويكسب الفرحة حزنا . يا الهى .
لماذا تقتصر السعادة على الأغنياء وحدهم ؟ ذلك خطأ اساسي
فالسعادة موجودة حتى في السجن . لقد عرفها يحيى هناك أكثر
من أى مكان آخر . رغم ان هذه الحقيقة الباطلة أصبحت
دافعا مرييا في عيني أمه . انها لا ترى فيه سوى الخسة والخمول .
وتتحدى كل متاع الدنيا اليس هذا اهانة لذاتها ؟ . بالتأكيد توجد
خلف هذه المتعة معاناة حقيقية . لا يحاول أن ينكرها . بل انه
بالح الحساسية تجاهها . حتى اذا لم توظف نفسها في احتواء
كل هذه الشكليات من الأفكار الكثيرة . فسوف تخفق فيه كل
مشاعر الحنان ، وستمنعه ان يحبها ببساطة . وستضطره أن يدافع
عن نفسه ضد أشباح الفقر التي تعرفه منذ أمد طويل .

انسل يحيى عبر الشوارع ، وهو يحس ان هذه الآلام تطارده

بمشاعر مسمومة ، كمن يريد أن يبعد عن نفسه كل المبالاة ، تحت
أضواء المصابيح الخافتة ، يبدو ظله القصير الحاد ومشيته المتعجلة
وكانها تصنع منه طيرا جارحا ضخما في هذا الحي الذي يمثل
منطقة محايدة بين الأحياء الشعبية والأحياء الأفرنجية . قليلا
ما يمر بعض المارة . وكانهم يلوذون بالفرار . يتناثرون في الليل .
مثل الأشخاص الذين يراهم في الكوابيس . ابطا يحيى خطاه وهو
يفكر في الاتجاه الذي عليه ان يسلكه . عليه ان يقوم بلفة كبيرة
كمي يصل الى حي الأزهر دون ان يجتاز الحي الأفرنجي . على كل
فعله الا يفامر بالذهاب الى تلك الشوارع الواسعة المكتظة بالناس .
الخاوية تماما من أى حياة حقيقية . يكره هذه العمارات الضخمة
الباردة . التي تشبه المقابر الكبيرة . وهذه الواجهات المضادة
بطريقة تثير النفور . والتي تملأها تناقضات عديدة . ليست هناك
واجهة واحدة ضرورية . فضلا انها سهلة الامداد . يجد نفسه دائما
في مدينة غريبة تختلف عاداتها عن عادته . يلتفت الناس حول
أنفسهم عند أول كلمة أو بادرة . وتنظم الشرطة كل شيء . يجب
ان يظل بعيدا عن هذا الثراء الفاحش . ضد من ؟ وضد ماذا ؟
فهو لا يرى أى الأسباب تدفع الى الخوف . لأنهم يعلقون أنفسهم في
تراثهم ، حتى لا يفكر أحد في سرقتهم .

سلك الطريق يميناً ، وهو يستكمل مسيرته تحت أضواء
المصابيح .

يجب أن تقول — وهذه صفات نادرة في الشعراء — ان يحيى
لا يتصرف كأحد العباقرة ولكنه يرى أن العبقرى يفقد البهجة !
وان عملية سوء الأخلاق العميقة — التي تثقل فوق أعظم المشاعر
الانسانية — تبدو له أسوأ جريمة . فهو يحترم الكثير من الناس
ليسوا شعراء ولا مفكرين ، ولا وزراء ، ولكنهم ببساطة يعيشون

في سعادة أبدية . فالقيمة الحقيقية عند يحيى تقاس بكمية السعادة التي يحصل عليها في كل وجود . كيف يمكن أن يكون المرء ذكيا وحزينا ؟ حتى أمام يدى الجلال لا يمكن ليحيى سوى أن يكون مرحا . تبدو كل المواقف نفاقا والتصاقا بكرامة ضائعة . وهكذا تخرج أشعاره معبرة عن أحاسيس الشعب الذى يعيش بينه . لغة تتوارد فيها الأمزجة عالية رغم المأسى . فشهرته في المدينة أشبه بللاعب قرد أو قراقوز . يعتبر أن مهنته ليست لتسليية الجماهير . وإنما للتعبير عنها . فهو لا يجد فى نفسه أى تشابه مع رجل الأدب من طرازه والذى يتمتع بنفس شهرته الخالدة . فهو لا يبحث عن المجد ولا الانتجاب . لكن أشعار يحيى مملوكة بالكلمات الغارية . يمكن أن يفهمها الصغير والكبير . يحسونها بغريزة لا تخيب عن الحياة التى يعيشونها .

ياله من شارع طويل مليء بالخوانيت المغلقة . والمصابيح العديدة كأنها فى مسيرة جنازية . أسرع الخطى . هرول ناحية قهوة المراياكى يتناول الشاي بالنعناع فى هذا الجو البديع . فجأة أحس بنوع من التنوير . فتوقف . الساعة ! ترى كم الساعة الآن ؟ هل لديه الوقت لرؤية الفتاة ؟ كيف نساها ؟ ارتكبه جنون فأخذ يجرى .

لم يجد وسيلة يمكنه بها ان يعرف الوقت . فى هذا الشارع الحاوى ، لا يوجد أحد أمامه . كاد يحيى أن يشعر باليأس . الا أنه رأى رجلا يخرج من باب عربة حنطور . يبدو رجلا أنيقا . يرتدى ملابسه على الطراز الأوربى . وقد حشر نفسه فى معطف أسود ثقيل . ويبدو أنه من الذين يحملون الساعات .

تباطىء يحيى واقترب من الرجل :

- كم الساعة الآن . يا سعادة البك ؟

أخرج الرجل من جيبه ساعة كبيرة من الفضة . وقال :

- الساعة الا ربعا . فى أى ساعة ستقل القطار ؟

قال يحيى : لا يوجد قطار . فلدى موعد مع فتاتى .

نظر الرجل الى يحيى . وهز رأسه مرات عديدة وهو يقول :

- ممكن يا عزيزى !

أكد يحيى : ممكن جدا .

ودون ان يشكر الرجل استكمل طريقه .

يا للرجل القدر ! انه يشك فى انه على موعد مع فتاته .

ولكن هذه هى الحقيقة تقريبا .

سوف يصل فى الموعد . فهى لاتعود قط قبل الساعة . وقف على مسافة خطوات من المنزل . تصلب فوق الرصيف . فى ركن مظلم بين مصباحين . فى هذا الشارع الأقل ازدحاما . لا يزال به بعض الخوانيت المفتوحة . يتحرك شخصان أو ثلاثة حاملين أكياسهم المليئة بالفاكهة . يخرج من المحلات المضادة بعض الدخان المنبعث من اللحوم المشوية وقريبا منها يوجد مقهى . استطاع يحيى أن يسمع أصوات دوائر الرزد . وأصوات اللاعبين . انتظر - وقد ملأه التوتر - فتاته وهو يصوب عينيه تجاه المكان الذى ستجى منه .

كان لقاؤهما الأول مجرد مصادفة بسيطة . فى ذلك المساء . وقع يحيى فى غمار المخدرات وهو يسلك نفس الطريق . عندها رآها تسير تحت نور المصابيح ذات طلعة بهية . تقابلت الأعين . اعتقد انه يقرأ فى عينيها وعدا وإحساسا لم يشعر به من قبل .

عينان مليئتان بالذكاء والغموض . وبدلاً من أن يطلق تعليقاً
سخيفاً . بادلها نفس النظرة . انها النظرة الوحيدة التي لم يشعر
فيها بالعطف أو السخرية . ولكن بشعور غريزي أشبه بالرعب .
لعلها ابنة موظف . ربما في السادسة عشر تتلقى دروس بيانو .
عرف يحيى ذلك من كراسات الموسيقى التي تحملها تحت ذراعيها .
تتهادل كأنها أميرة تزور الأحياء الشعبية . انها فعلاً كراسات
موسيقى . تبدو شيئاً غريباً على هذا الحي . ففي مثل هذا الحي
لا يتلقى أحد دروس البيانو الا في النادر . دهش يحيى حين رأى
بعض أطفال الحي يطاردونها بتعليقاتهم ، انه طريقها بالتأكد .
أحس بالعرق يتصبب على جبينه . في نفس المساء قرر أن يكتب
قصيدة على شرفها ، وان يعطيها اياها بأسلوب رقيق وفريد .

تصرف يحيى دوماً بنفس الرقة . فهو عندما يراها قادمة
يسير في اتجاهها كي يبدو اللقاء مصادفة ولكن ، الا تفهم ذلك ؟
في آخر مرة القت له بابتسامة منتظرة . كأنها فهمت مشاعره .
اطمان انه أكثر اقتراباً منها . لم يعد يحيى يفكر ذنبة في هذا الأمر .
« لا تبدي أى استمزاز لرؤيتي . يالها من فتاة شجاعة . أو ربما هي
قصيرة النظر ؟ » وزيادة في الحرص تعمد ان يكون اللقاء تحت
المصباح حيث الضوء قوى . حتى لا يخذلها . لكنها أعجبت بدماعته
حتى لا تأتي فيما بعد وتروى له أنها لم تره جيداً في العتمة الشديدة .
لذا فان يحيى يتعمد أن يجعلها تراه في كل مرة . فيبدو الوجه
واضحاً تحت المصباح . لعلها تفكر انه يتصور نفسه جميلاً وهو
يكشف عن نفسه وسط الضوء .

لقد تأخرت الفتاة . ربما عادت الى المنزل . أو أنه لا يوجد
درس بيانو اليوم ؟ بدأ يحيى يحس بالملل من هذا الانتظار الطويل ،
جمع ساكناً في الظلام ، وقد سلم نفسه للبرد ولنظرات المسارة التي

تنظر اليه . ربما كمن يتحين الفرصة . انه يخاطر بهذه الوقفة .
توقفت أصوات الدوائر في المقهى وارتفع خليط أصوات لم يستطع
أن يحدد كنهها . مر بائع بطاطا وأخذ ينأى مبتعداً بضاعته .
يستخدم نفس العبارات المثيرة وكأنه يغازل بها امرأة مبتدلة .
مر بعض الأشخاص قريباً من يحيى . فوققوا لحظة . نظروا اليه ثم
استكملوا طريقهم وهم يهزون الرؤوس .

رأها قادمة من بعيد فأطلق تنهيدة ارتياح . فيمكن لهذه
الوقفة في حي متوسط ان تنتهي الى مالا يحمد عقباه ، أحس بالسعادة
لأنها انتهت . تردد لحظة ، ثم بدأ في المشي ، واضعاً في حسبانته
أن يبدو اللقاء مصادفة تحت المصباح . واعياً أن يبرز دمايته .
فهو لا يؤمن بالاغراء . ومع ذلك تقدم وقد تورد وجهه كالعشاق
محاولاً إبراز كل دمايته كي يعمل على جذب اعجاب الفتاة .

وأسفاه ! لقد نسي القصيدة التي نظمها . أين القصيدة ؟
فتش في جيوبه بسرعة . أخرج بعض الأوراق . اعتقد انه وجدها .
تساءل : ربما ان هذا أفضل « ياخسارة فليس لديه وقت كي
يتأكد منها . هبت عليه نساءها » . كأنها دخان الحشيش .
أكثر قرباً ، وواقعية . ولكنه بعيد أيضاً .

دخلت في دائرة الضوء المنبعث من المصباح . بخطى رشيقة ،
رفعت رأسها وهي تنظر نحو الأمام ، ساد الشارع زلزال جاب الحي
كله . تضع عن رأسها غطاء رأس من القطيفة الزرقاء . وترتدى
معطفاً من نفس اللون . وقد لفت على وسطها حزاماً من الجلد
الأسود .

زادت هذه الأناقة الأوروبية من مشيتها سحراً . تضم كراسات
الموسيقى تحت ذراعيها وقد كستها بمظهر التلميذة المجتهدة . ينم
كل شيء فيها عن كبرياء لحدود له . وازدراء تام له .

سارت على مقربة من يحيى دون ان تغير من مسلكها .
وتصنعت التجاهل التام تجاه يحيى الذى وقف تحت المصباح . وقد
كشف وجهه فى الضوء . اكتست شفتاه الغليظتان بابتسامة .
لكن هذه الحركة لم يبد لها أى معنى عند الفتاة التى لم تعرف
انتباها . .

شعر يحيى بخيبة أمل . سار بضع خطوات . ثم استدرك
واسرع خلفها . أحس انه على استعداد لاقتراف أى جرم لو استدعى
الأمر . كيف جرؤت ان تتجاهله .

— لقد نسيت هذا يا آنسة .

وقفت مبغوتة . وقد بدا عليها الخوف . . فالموقف مربك
بالنسبة لها . لم تكن تتصور ان لديه الشجاعة ليفعل هذا .
بسطت يدها بتلقائية . فمد لها يحيى بالورقة المكتوب فيها القصيدة
وابتعد على عجل دون ان يلتفت اليها .

مر الأمر دون خطورة . نجحت طريقته تماما . كيف
ستتصرف بعد ان تقرأ القصيدة ؟ أحس بسعادة عميقة وهو يفكر
كيف سيكون لقاءه القادم بالفتاة .

(٢)

دخل نور الدين ضابط الشرطة قاعة الانتظار وأغلق باب
الغرفة خلفه حيث يقصص الطبيب الشرعى جثة العاهرة القتيلة .
ظل ساكنا برهة . وقد امتلأت نظراته الناقبة بالثقة . تأمل الغرفة
بدقة شديدة . وكأنه يبحث عن شيء يتعلق بالقاتل . هذا جزء
من الروتين . فالقاتل يتواجد فى هذه الغرفة بالتأكيد . ارتعد
الحاضرون لهذه النظرات الباردة . ولمدة ثوان ساد صمت رهيب .
الآن كل البنات فى المنزل وأيضا ثلاثة زبائن أوقعتهم ظروفهم
السيئة فى هذا الموقف . لا يوجد أدنى سبب للشك فيهم . يقفون
بجوار الباب كالعادة يحرسهم أحد رجال الشرطة كرهائن . منذ
أن عرفوا ان لا شيئا يمسهم ويكررون ان وراءهم أعمالهم وعليهم
الذهاب . لكن شكواهم ضاعت سدى الريح مع هذا الضابط المتجهم
الوجه الذى يقف بجوار باب المنزل . يتكلمون الآن فيما بينهم عن
وضعهم الاجتماعى الحساس . ويرددون ان هذا الخطر كفيل بإحداث
فضيحة عالمية . قال أحدهم :

- سوف أبلغ صديقي الوزير .

صمت الآخرين ، انهما على عجلة ، ولا يجدان شيئا يبلغان به الوزير . فكرا برهة في علاقتهما بالملك ، لكن هذا الأمر بدا لهما أقل أهمية للاتصال بأحدى الشخصيات المرموقة .

الموقف البالغ الرثاء فعلا كان هو موقف الست أمينة . جلست على طرف الأريكة وقد أسندت يدها على خدها . فبدت أشبه بأحدى الشهيرات . تبكي بصوت أجش وهي تطلق تنهيدة من أعماقها ليكون الله شاهدها .

- كان يوما أسود ! ماذا جئت ياربى ؟

بعد أن ألقى نور الدين العديد من النظرات حوله - وهذا من دواعي الروتين الغبي - سار نحوها بخطى ثابتة ، بدا متعبا . وعلى استعداد لحبس كل الموجودين . قال بلهجة حادة :

- كفى عن هذا التصنع يا امرأة .

سكتت الست أمينة فجأة . مبتلعة تنهيداتها وأنكمشت داخل نفسها . فهي ليست امرأة غبية . ولا يمكنها أن تتجاوز قوة القانون . لقد قدرت جسامة الموقف . ففي هذه المرة تعرف ان بيتها سيغلق . لأن حدوث جريمة فيه يعنى نهايتها .

أكمل الضابط : اذن . ماذا تعرفين عن هذه الحكاية ؟

- ماذا أقول لسعادتك . بشرفى . أنا لا أعرف شيئا خرجت بعد الظهر مع الفتيات لنقوم بعمل مشتريات . وعندما عدت ذهبت الى غرفة أربيه كى أطلب اليها أن تستعد فرائدها ممدودة فوق السرير . أطلقت صرخة فجاءت بقية البنات ليرين ما حدث ليحفظ الله سعادة البك من هول ما رأينا . لقد تسربت منى دماى .

- وهذا الذى يثيرنى فيك يا امرأة . اذن فقد تركت البيت وتجولت في المدينة . مستحيل ، تصورتك ستقولين الحقيقة .

- أنه يوم النزهة بالنسبة للبنات يجب أن يتنسمن الهواء . ولماذا لم تذهب أرنبة معكن ؟

- لا أعرف يا سعادة البك . انها تجد راحة في ذلك . لأنها مستجدة . وأنا لا أحب لأحد أن يعارضنى . المهم بالنسبة لى أنها تعمل جيدا .

- وهى عدتن ؟

- حوالى الساعة السادسة .

- ألم يكن أحد فى المنزل مع أرنبة ؟

- أبدا يا سعادة البك . لم يكن هناك أحد . ربما زيون .

- انظر بنفسك يا سعادة البك . فكل زبائنى محترمين ولا يستطيعون قتل ذبابة .

- لكنك تستطيعين قتل ذبابة ! أيها الداعرة . ولا يدعشنى أن تكونى القاتلة .

وازاء هذا الاتهام المباشر ، رفعت الست أمينة ذراعيها نحو السماء . وأرادت أن تعود الى البكاء . لكن الضابط أوقفها :

- أخبرينى هل كنت تعرفين انها تخفى نقودا فى غرفتها ؟

- لم يكن معها مال . فأنا احتفظ لها بكل مالها .

- هل أنت واثقة ؟

- طبعاً يا سعادة البك !

- سأتولى أمرك فيما بعد . وأنصحك أن تلزمى الهدوء .

دعك الضابط يديه وبدا متعباً للغاية . فمذ أن بدأ التحقيق وهو يشعر بالضيق مما يحدث . فالقتل لم يتم بدافع السرقة . والجريمة ليست بدافع الجنس . يقول تقرير الطبيب الشرعى ان جسد العاهرة ليس به أى علامات أو بقع جافة . لقد خنقت الفتاة بطريقة تقليدية . أمر غريب . وجد نور الدين نفسه - لأول مرة - فى موقف لا يحسد عليه : أن يحل لغز جريمة بلا دافع . فجريمة كهذه تخفى فى طياتها أسباب غريبة . أسباب خفية ذكية لا يمكن لشخص واحد - الا اذا كان ذا ثقافة أوربية - أن يفكر فى تنفيذ مثل هذه الجريمة . انها من نوع الجرائم التى تنشر فى كتب الغرب . جالت عيننا الضابط القلقة - من جديد - فى المكان . بحثنا عن شخص بالغ الذكاء يمكن ان يقترف مثل هذه الجريمة . ولكن أى من هؤلاء لا يقدم اجابة شافية . فلا يمكن لأى منهم أن يكون هذا القاتل الخيالى . أحس نور الدين أنه وحده مع الجريمة . اقترب من مقعد قريب من المائدة وجلس عاقدا ساقيه . ثم أشعل سيجارة .

انه عبد للروتين . عليه أن يسأل كل هؤلاء الناس . وهو يعرف الرد مسبقا ماذا يمكن أن يفعل بكل هؤلاء الذين يرتجفون ويخافون ضياع سمعتهم . أخفى نور الدين اشترازه . وشعر ان الملل يتسرب الى روحه وترك ما يحدث حوله . وتذكر مشكلته الخاصة . لقد استدعوه كى يتول هذه المهمة فى لحظة حساسة . يشعر أن عدم لقائه بسمير يعد كارثة . لا يكف عن التفكير فيه . يعرف مدى حساسية الشاب . العذر أقبح كى يغفر له عدم حضوره . سوف يضرب له موعد آخر . ترى هل يوافق ان يلتقيا

ثانية ؟ ينغص هذا السؤال على كل أنشطته . فلا يشعر بأى راحة . لكن عليه الا يكون شاردًا وهو يحقق فى جريمة مجهولة الدافع كهذه .

ورغم ما يبذره على الضابط نور الدين من صرامة الا أنه معجب مشدود بالجمال . هذه المهنة التى تجبره ان يكون وسط حضيض المجتمع . قد غدت شيئاً بشعاً بالنسبة له . فهو يجد نفسه دائماً غارقاً فى أحوال حوارى الأحياء الشعبية . برفقة المجرمين والمشردين وهذا شئ يهدد روحه الآمنة ويجعله فى حال يرنى له . رغم أنه يؤمن برسالة هذه المهنة ويكن فى أعماقه إيماناً بدور رجل الشرطة . ولكنه يحب ان يتولى الجرائم النظيفة التى يرتكبها الأذكىاء من المجرمين . لكنه يقع دائماً مع الأفاكين والأقل تربية .

الا يشعر أى انسان بالمرارة وهو يرى مثالياته موضع سخريه ؟ بالقسوة القدر ! أحس نور الدين بالاختناق . فك الزرار العلوى ليخلص عنقه من هذه الباقة القاتلة . شعر بالراحة وهو يفعل هذا الأمر الغريب . أحس أن عليه أن يجزى الاستجواب رغماً عنه . بالنسبة للبنات فلا يمسهن أى جرم . ومن غير المجند أن يستجوبهن . لسن سوى حيوانات غبية . وهن كفيلات أن يزيدن من تعقيد مأموريته . ليس أمامه سوى الزبائن الثلاثة الذين يخرق التساؤل عيونهم . وكأجراء روتينى عادى أجرى معهم استجواباً عن هويتهم وسيطلق سراحهم . فالقاتل ليس من بينهم بالتأكيد . اقتنع نور الدين شيئاً فشيئاً - ولعل هذا ما يوده فعلاً - ان القاتل رجل آخر . طليعى الفكر وفوضوى . ومثل هذه الملابس تعطى لمأموريته حيوية .

قال أحد الزبائن الثلاثة الذي يتباهى بصداقته للوزير صارخا : لا يمكنك أن تفعل هذا بي ! الا تعرف من أنا ؟

لقى عليه نور الدين نظرة اشمزاز . أنه يعرف هذا الطراز من البشر . ويكفيه مألديه من أمثاله . أمامه الآن مهمة عليه أن ينتهي منها . فالمهمة الحقيقية لن تبدأ الا غدا اذا حالقه الحظ سيقابل سمير قبل أن يحل الليل . عملت هذه الفكرة بثقلها فوق آلامه . ظل مكتئبا . مكفهر الوجه . يبدو صارما .

فتح باب الغرفة التي يرقد فيها جسد العاهرة القتيلة . خرج منه رجل في الخمسين من العمر صاحب الوجه طويل الأنف . يرتدى طربوشا فجعدا يملأه التراب . أنه الباشكاتب :

- تحت أمرك ياسعادة البك .

قال الضابط : اجلس هنا .

جلس الباشكاتب . وأخرج بعض الأوراق من حقيبته ووضعها فوق المائدة . ثم أمسك قلم كويبا مبرى من الطرفين . وقد تركت بعض البقع الزرقاء على شفتيه . سأل :

... بمن نبدأ ؟

احسب نور الدين : سننتظر قليلا . هل انتهى الطبيب الشرعى مع اللجنة ؟

- أمامه وقت قصير .

- أرجو ذلك .

بعد هذا الحوار القصير . استعاد نور الدين وجهه الصارم . نفث دخان سيجارته وهو يتطلع نحو السقف . ويبدو كأنه قد

قرر الهروب من عبوديته . ركز الجميع أنظارهم عليه . لقد وضعهم مثل هذا الموقف المتضارب الملىء بالتهديد فى وضع تحد . فهم لا يعرفون ما سيقولونه ولا ما يضمنه لهم . جلست الفتيات فوق الأريكة متكومات فى حماية الست أمينة . وقد تملكهن الخوف فيما يدور . ولكنهن يشعرن بالسعادة لحضورهن تحقيق فى جريمة تخصن . فيملأهن الفضول . أما نائلة فهي الوحيدة التي أثرت فيها المأساة . فقد جعلها المرض أكثر حشاشة وحساسية من زميلاتنا . فهي تقدح خيالها وتضع نفسها مكان القتيلة . تمنى أن تكون هي . تريد أن تموت مع هذا المرض الميؤوس من الشفاء منه . من الأفضل بالنسبة لها ان تقتل بدلا من ان تعيش أشبه بهيكل عظمى . السيرة موت بطي لا يرحم . غلبتها أفكارها وقد علاها شحوب واضح . بين لحظة وأخرى يهزها سعال قوى . حاولت الفتاة الجالسة قريبة منها - وتدعى سليمة - أن تهدأها . أما عقيلة أصغر بنات الماخور فقد أبعدت وساوسها ولم تفكر سوى فى العمل فرغم وجود رجال الشرطة وجثة زميلتها الممددة فى الغرفة المجاورة . الا أنها لم تكف عن الغمز بعينيها للزبائن الثلاثة الموضوعين تحت الحراسة . لكنهم كانوا يفكرون فى أشياء أخرى . فقد ذكرتهم غمزات عقيلة وابتسامتها بواقعة سوداء حاولوا نسيانها . فمن الآن وماعدا سيفكرون ألف مرة قبل أن يدخلوا ماخورا آخر .

أنهى الطبيب الشرعى مهمته . دخل قاعة الانتظار . وقد علا وجهه اكتئاب وبدت عيناه حمراون كأنهما تشعا نيرانا . وكأنه سكين . انه شاب أيضا . تأثر كثيرا لرؤية جثة أرنبه العارية . سأل بضوت مخنوق أين يمكنه أن يغسل يديه . قالت الست أمينة :

- فى آخر الطريقة • أزه الطريق يا زايد •

أشار زايد - الخادم - الذى كان يجلس فى أحده الأركان للطبيب بكل وقار • واختفى معه فى الممر •

أثار هذا الأمر انتباه الضابط فقال لست أمينة :

- أخبرينى يا امرأة • هل زايد قوادك ؟

صاحت الست أمينة : يالها من أهانة يا سيدى • انه يتولى أعمالى • ويقوم بخدمة البنات •

- أين كان بعد الظهيرة ؟

- كيف لى أن أعرف • أنه لا يأتى الا فى المساء • جاء بعد أن عدنا • ولد طيب يعمل فى خدمتى منذ سنوات وأنا أثق به •

سمعت الست أمينة أن تجعله يشعر ان القاتل غريب عن منزلها • تعرف أنه لم يبق أمامه سوى ان يهاجم تجارتها •

- سوف أتولاه فيما بعد • أخبريه الا يفادر المكان • وأنت مسئولة عن هذا •

تنهدت الست أمينة وقالت : ليحفظنا الله • هل أعد لك قهوة ياسعادة البك ؟

- لسننا هنا لشرب القهوة يا امرأة ! يبدو أنك لاتقدرين جسامة ما حدث فى بيتك • دعينى أخبرك أن نهايتك اقتربت •

قالت أمينة متوسلة : ارحمنى يا سعادة البك ؟ ماذا أفعل •

اقتلنى اذن !

- كفاك وهذه الملهة ! وأكرر عليك لآخر مرة • لست هنا لأشرب قهوة ولا لأسمع هذه الأصوات المزعجة •

ود أن يخبرها أنه هنا لمعرفة القاتل • ولكن بدا هذا أمرا ساذجا فلم يقله لقد تصرف نور الدين كطفل صغير غيور على أسراره فعليه الا يجعل أحدا يكتشف رايه فى أن القاتل ليس فى المنزل • وانه ليس من أبناء الأحياء الشعبية • تنخر فى رأسه فكرة ان القاتل غريب عن هؤلاء « الهمج » رغم أنه يدرك أن يقينه مبنى على تحليل نفسى ومصادفة • أحس أنه ينزلق فوق منحدر خطير لايعرف أين سيأخذه • عليه الا يتبع الروتين التقليدى • عليه القبض على القاتل • لكن كيف ؟ لو سرق شيئا لأقتفى أثره • ولكن هذا القاتل اللعين لم يسرق شيئا • قتل واختفى • ترى ما السبب ؟ ربما بدافع الانتقام ! عليه أن يعرف شيئا عن حياة القتيلة • هذه العاهرة الصغيرة الساحرة الجمال ، عليه أن يجسد أثرا لبعض الرجال الذين يعرفونها • وعما اذا كان لها عشيق • لم يطلق نور الدين خيالاته كثيرا • فهاهو فى مهمة داخل مجتمع متمرّد • اعتاد العنف ، ملأته التجربة • ويتصرف ببرود • ورغم هذا عليه أن يتعرّف على قاتل العاهرة •

كيف يمكن أن يخرج نفسه من هذه المحنة ؟ فغثاة المهام المائلة تجعله يشعر دائما بالودنية ، والاحباط • وقد يكون فى نهاية الأمر ظالما ومصابيا بالمرارة • طالما أنه فى خدمة القانون • عليه ان يجعل القانون مهابا يعاقب المذنب • للأسف فان احساسه بهذه القوة بدأ ينخر فيه • وقد يدفعه ان يصبح أقل ايمانا بالسبب الذى يعمل من أجله • وهذا أمر جسيم •

جاهد أن يغلب يأسه • واستعد لبده التحقيق •

فى هذه اللحظة طرق الباب بشدة • ران صمت طويل • أشار نور الدين للشرطى ان يفتح الباب •

عبر الكردي الممر بخطى مرحة . وقد اكتسى وجهه بابتسامة
تعبير عن السعادة لكنه توقف كأنما أخطأ المكان . اتسعت حدقاته
من الدهشة وهو يرى هذا الجمع الذي أمامه . كف عن الابتسام .
ود أن يقول شيئا . ربما يعتذر . لكن الشرطي لم يمهله الفرصة
للكلام . أمسكه من ذراعه . ودفعه أمام الضابط قائلا :

— زبون جديد ، يساعد البك .

قال الضابط موجها كلامه للسبت أمينة : أرى منزلك عامر !
أيقظت سسخريته الشجون . فمزلها عامر . وليست في
حاجة ان تؤكد له ذلك . وهي الآن معرضة ان تفقد كل هذا نتيجة
لجريمة ارتكبها قاتل داعر . ومن جديد بدأت تبكي :

— لماذا تلاحقني المصائب . أنا امرأة غلبانة .

أمرها نور الدين : اسكتي والا أمرت بحبسك : لنر هذا
الشاب .

قال الكردي : أنا .

انها الكلمة الوحيدة التي تمكن من النطق بها . لم يفهم حتى
الآن أى مصيدة وقع فيها . فوجوده في مثل هذا المكان أشبه بحلم .
دعابة سخيفة . دعك عينيه كى يرى جيدا ماذا يفعل هذا الضابط
هنا ؟ بدأ يكتشف الأمور . انها « كبسة » . . . كاد أن يضحك
قال نور الدين :

— أجل . أنت .

تأكد الكردي أن الأمر جسيم . تمالك وعيه ، واختفت
الابتسامة . اكتست شفتاه بابتسامة بلهاء ساخرة مليئة بالاهانة .

نظر اليه الضابط بحدة . سوف يوسع هذا الوافد الجديد من
دائرة التحقيق . ونور الدين لا يريد شيئا من هذا القبيل . لاحظ
أن هذا أول شخص يستحق الاحترام . يختلط بهذا الوسط
الغريب . فكر أن يقبض عليه . سأل الكردي :

— ماذا حدث ؟

— سأشرح لك كل شيء . اجلس وكن هادئا .

هز الكردي كتفيه . وعدل طربوشه ونظر ناحية الأريكة .
تلفتت الفتيات حول السبت أمينة وقد غلفهن الصمت . عندما رأى
نايلة بوجهها الشاحب الذي تملأه الدموع أسرع نحوها . رأى في
نفسه رجل الحق الذي عليه ان ينقذها من قبضة الشرطة .

— افسحوا لى مكانا .

افسحت الفتيات له مكانا . جلس الكردي قريبا من نايلة .
أمسك يدها وضماها اليه . لكن هذا الموقف المؤثر لم يسكن الراحة
في الفتاة . بل ان حضور حبيبها أثقل عليها أحزانها . فهي
تعتز بكرامتها . تعي تماما أن الكردي يمكنه ان يخلصها . تتساءل
أحيانا هل هي صادقة نحوه . فكلما أخبرها عن رغبته في ان تترك
هذه الحياة تتأزم علاقتهما . سأل الكردي :

— قلن لى يابنات . على شرف من هذه الحملة ؟

قالت سليمة : ليست حملة . لكن أرنبه قتلت .

— قتلت ! كيف ، وأين ؟

— وجدت بعد الظهر مخنوقة في سريرها .

جلس الكردي مذهولا بعد أن سمع عن الجريمة . ثم تنبهت

مشاعره • وأدرك جسامته الأمر • تأمل نايلة ولسها كأنما يؤكد لها وجوده وشعر ان قلبه تملأ الشفقة •

ربما كانت هي • • ملاته هذه الفكرة بالآلم فجاهد دموه •
لكن هذا لم يدم طويلا • نظر الى الضابط والمحضر والشرطيين •
انهم يمثلون العدالة • ملأ الفضول رغبته • ويفكر أن الأمر قد لا يتعدى التسلية •

— هل قبضوا على القاتل ؟

ردت نايلة : لا

قال الكردي : يالها من قصة مزعجة • فقد اعتقدت انها أنت •
— ليتها أنا • ساعتها لن يبكي أحد على •

— لاتقولى هذا الكلام • لن أتركك وحدك أبدا يا حبيبتي •
سأكون معك بدءا من اليوم •

— يا الهى • لاتقل هذا الكلام • ووظيفتك ؟

— الوظيفة • سأطوح بها الى الشيطان • لقد وجدت وسيلة
أخرى لكسب الرزق • سأحدثك عنها فيما بعد •

— خرج الطبيب الشرعى • بدا أقل تأثرا • وكأنه وقع تحت
تأثير مخدر • سأله الضابط :

— الا من جديد ؟

قال الطبيب : الآن لا يوجد • غدا سأرسل لك تقريراً بعد
التشريح • الآن سوف أذهب • سلام عليكم •

قالت الست أمينة : الا يود السيد الطبيب أن يتناول كوب
شاي • لا يمكن أن تذهب هكذا • بالله عليك شرفنا •

رد الطبيب الشرعى : شكرا جزيلا • فانا على عجالة من
أمرى • فى مرة قادمة •

انفجر الضابط قائلا : قولى يا امرأة • متى ستفهمين أننا
لسنا فى زيارة مأخورك • أخبرتك ان تسكتى •

— فهمت ياسعادة البك • أنا لا أفعل سوى الواجب • أريد
أن أكون ودودة •

قال الكاتب : سوف نبدأ الاستجواب •

ألقى نور الدين عليه نظرة حادة لم يفهمها • أى استجواب ؟
لقد نسي تماما هذه الملهاة السخيفة • ومع هذا عليه أن يقوم بها •
فالروتين يضطره الى ذلك • وهذا الباشكاتب الذى تعلمه الأتربة
يسبب له وجعا فى رأسه • تمنى نور الدين ان يكون معه باشكاتب
شاب • فمثل هذا الرجل العجوز لا يمكن للعدالة ان تأخذ مجراها •

أشار الى أحد الزبائن ان يقترب • انه ذلك الذى يدعى انه
صديق الوزير • قام ومشى تجاه الضابط بخطى متثاقلة وهو
يزمجر بكلمات غير مفهومة • يبدو بليد الذهن • يرتدى بدلة
متسخة • وقد تجعد طربوشه القدر • وقف أمام الضابط منفوشا
وصاح :

— لايمكنك أن تفعل هذا • أنت لاتعرف من أنا •

قال نور الدين بهدوء : أسكت •

— قلت لك الا تعرف من أنا ؟

— وأنا قلت لك اسكت • رد فقط عندما أسالك •

— أسكت ، أبدا • سوف تندم عندما تعرف من أنا •

دق على صدره كأنه يشير الى هويته .

سأله نور الدين : حسنا . قل لي من أنت ؟

تنهد الرجل بعمق وقال بصوت يملأه الفخر :

- أنا محصل .

أثناء هذا كان الكردي يتطلع الى ما يحدث دون ان يتنبه ان هذا يمكن ان يحدث له . يرفض ان يفهم ما يحدث أمامه ويتردد في ان يضحك . لاحت فجأة أمام عينيه سخافة الموقف فانفجر ضاحكا .

توقف صديق الوزير . بدا خائفا كأنما ضحك الكردي يمس نبيل أخلاقه . وضعته هذه الاهانة الجديدة في موقف يرثى له . نظر الى الكردي باحتقار . ماذا يضحكه . هل لأنه محصل ؟

أما الكردي نفسه فلم يفهم علام يضحك . بدا الأمر غريبا للحاضرين . فهو يضحك في منزل ارتكبت فيه جريمة قتل . ووسط تحقيقات الشرطة . ولا يمكن أن يكون هذا سوى ضرب من الجنون . صعقت نايلة لسلوك حبيبها المهيمن . ولم تجد توسلاتها في أن يكف عن الضحك . فقد بدا أن الشاب غير قادر على السيطرة على الرعشة التي تهزه من أعماقه وفي كل مرة ينظر الى الرجل يعاوده الضحك مرة أخرى .

أحس المحصل بالاهانة وانتظر ان ينتهى الضحك كي يتكلم . لم يفهم شيئا . أما نور الدين فهو الوحيد الذي أراد ان يضحك وسط هذا المشهد المهيب . لكنه لم يود أن يحول الأمر الى مزاح . قال :

- كف عن الضحك . فلسنا هنا في مأخور .

قال الكردي وهو يضحك أكثر : فعلا ياسعادة البك . لسنا في مأخور .

أحس نور الدين أنه يتهم الجميع . وانه اقترف جرما . فسكت وهو يشتعل غضبا . انهم فعلا في مأخور . على كل فسوف ينال من هذا الشاب عندما يحين دوره في الاستجواب .

في هذه الاثناء . استعاد المحصل جأشه . فقال :

- هل تعرف من أكون الآن ؟

- محصل . أين ؟

صاح المحصل وهو يشهد الجميع على وجوده : أيها الناس الطيبون . أنا أقوم بالتحصيل في كل مكان . ألم تر محصلا من قبل ؟

قال نور الدين : مثلك . لا .

- سيدي الضابط . أنا أحتج على هذه الاهانة . وسوف أشكو للوزير .

أحس نور الدين أن عليه أن يتصرف بسرعة . والا لن يصل لشيء مع هذا الملعون . وسيكون جهاز السلطة ألعوبة . وسيغدو الاستجواب ملهاة ساخرة لا يمكنه ان يترك نفسه يخاطر . صفع المحصل على وجهه مرتين . استدار هذا الصغير وأطلق صرخة مكتومة . وقد غطي وجهه بيديه . لكن الأمر جاء متأخرا . جلس نور الدين وهو ينظر اليه باشمئزاز . كل هذا دام كسورا من الثانية .

- اجلس . والآن فامالك فعلا ما تشكو منه الى الوزير .

عاد الرجل الى مكانه صامتا . سار منحنيا كأنما اصابته
الشيخوخة فجأة . وبدا كأنه أفرغ كل كرامته خلفه .

واستكمل التحقيق بشكل طبيعي . تصرف الزبونان الآخرون
بحذر واضح . فذكرا اسميهما ووظيفة كل منهما بسهولة .
وقد علاهما الشعور بالحزى لأنهما دخلا مثل هذا المكان يقران
فى الخروج بأسرع ما يمكن . أطلق الضابط سراحهما ، وأيضا
سراح المحصل الذى يسير الآن فى طريق ملأته الأشباح . لن يتقدم
بأى شكوى الى الوزير . فقد عرف فيما بعد أنه محصل متقاعد .

عندما شعر الكردي أن دوره قد حان أحس بالقلق . فهو
لا يحب أن يمثل أمام الحكومة لأن هذا يعطيه الاحساس بضخامة
المسئولية الملقاة على عاتقه . سوف يدافع - أخيرا - عن الشعب
المظلوم . رغم ان هذا الشعب لم يوكله للدفاع عنه . لكنه ينظر
دائما الى العدالة كأنه نصير المظلومين . فهو مشغول بقضايا الحرية
التي قد يمسها الظلم من أى ناحية . يحس الآن ان الوقت قد حان
كى يهاجم العدالة المجسدة فى هذا الضابط المتغطرس . سوف
يلقنه درسا وسيخبره ان الجريمة والقانون شيء واحد . وأحس
بالسعادة .

استدار نور الدين ناحية الكردي . وهو يدقق فيه . كأنه
يقوم قيمة فريسته . وأحس هو أيضا بالسعادة :

- تعال يا من كنت تضحك .

قام الكردي من مقعده . وجلس أمام المائدة التي يجلس
الضابط خلفها . وقد بدا عليه الاستياء :

- لن أجعلك تنتظر . اسمى الكردي . موظف فى وزارة
الأشغال العمومية .

لم يحس الكردي بسدى حقارة وظيفته مثلما أحس بها أمام
هذا الضابط المتعجرف . أه . ليس نور الدين متعجرفا ولكنها
طبيعة عمله التي تجعله يحتك بالجهلاء الذين تملأهم الماراة . أما
الكردي فانه يحتقر أفكار ضباط الشرطة الغبية ولسوء حظه . فقد
وضعت الظروف أمام ضابط الشرطة الوحيد الذى لديه وعيته
الخاصة التي يطبقها بأسلوبه .

- وهكذا يا سيدى الموظف ترتاد بيوت الدعارة . هل أنت
مندوب الوزارة ؟

- أجيء هنا بدافع الرغبة ، وأعتقد أن الحب ليس ممنوعا فى
القانون . والا كان كارثة .

أضاف نور الدين : لا الان ليس ممنوعا .

- وهذا ما أتمناه فى المستقبل . لكن هذا لا يثير أى دهشة .

- اذن فانت تفهم فى القانون . هل لديك الرغبة فى الشكوى !

رد الكردي بحماس : سأشكو عندما يكون هناك سببا .

شعر نور الدين بالرضا الذى لم يشعر به أبدا فى تحقيقاته
السابقة . يجلس الآن أمامه - متورطا فى جريمة قتل - رجل
مثقف . لديه وعى بالأشياء وليس من الرعاع . انه يسعى الى مثل
هذا اللقاء منذ سنوات . ترسم السذاجة فى عينيه ويحس ان
هناك تمردا فى هذا الشاب . يميل الى الهجوم الذى يفقده منذ
زمن طويل .

بال تأكيد ليس الكردي شابا ، ثم أن ملامح وجهه قد اكتست
بأشياء غريبة . أثارت انتباه نور الدين الذى بدا وكأنه نسى أفكاره
المريرة . الآن فان هناك تغييرا واضحا فيه . طريقته البالغة الرقة .
الحقد الذى يحسه تجاه السلطة .

دقق فيه نور الدين • بنوع من الاعجاب البادى • وقد شعر
بالرضاء • لذا بدأ يتكلم فجأة باللغة الانجليزية :

— هل تأتي كثيرا هنا ؟

رد الكردي بنفس اللغة : كلما وددت اشباح رغبتي •

— يبدو لي انك تفضل احدى هؤلاء الفتيات • وانك عشيقها
على ما اعتقد •

علا هذا الحوار — باللغة الانجليزية — وسط صمت قاتل •
لم يفهم الباشكاتب شيئا فتوقف عن الكتابة • فى أول الأمر حك
اذنه معتقدا أن صمما قد أصابها • ثم تجاوز الأمر • ووضع قلمه
الكويبا أمامه وحاول ان يتظاهر بأنه يفهم ما يدور • تصورت
الست أمينة أن هذه اللغة الغريبة تخفى فخا مدبرا لها • تنهدت
وهي تقول :

— بشرفى انه ليوم القيامة • يتكلمون فى بيتى باللغة
الانجليزية •

قرر نور الدين ان يستكمل الاستجواب باللغة العربية •
ليس ليطمئن الست أمينة • ولكن لأن المحضر قد وجد نفسه خارج
اللعبة • فأخذ يلكر أسنانه :

— هل لك علاقات بأشخاص يأتون هنا ؟ أريد أن أعرف رأيك
فيهم •

أمسك الكردي طرف هذا السؤال الجانبي :

— على ما فهمت • فانت تعنى أن أحدثك عن الأشخاص الذين
يمكنهم ان يرتكبوا جريمة • دعنى أخبرك ياسيدى الضابط أننى
لست وغدا •

— لا أقصد • لقد فهمت خطأ • أريد أن أعرف ظروف هذا
البيت • هل يمكن ان تعاوننى ؟

رد الكردي : على كل • فانا لن أفعل شيئا أساعد به الشرطة •
وأنا لا أعرف شيئا حول هذا الأمر •

— أليس لديك أى فكرة حول اسباب هذه الجريمة ؟

— هناك أفكار كثيرة • وأشك أنك يمكن ان تفهمها •

— لماذا ؟ سأكون سعيدا اذا عرفتها •

— حسنا • أنا أعتبر أن المجتمع هو المسئول الوحيد عن
هذه الجريمة •

قالت الست أمينة :

— ماذا تقول يا بنى ؟ هل جنت ؟

اعتقدت أن « المجتمع » الذى يتكلم عنه الكردي يعنى
الأشخاص الموجودين خاصة هى • قال نور الدين وعيناه تلمع
باحساس غريب :

— اسكتي يا امرأة ! استمر يا عزيزى • أنت تثير فضولى •

لكن الكردي كان قد انتهى من كلامه • أحس أنه قال كل
مالديه بهذه الجملة الثورية • قال :

— ليس لدى شئ أضيفه •

بدا أن منابع ثورته قد جفت • قال نور الدين :

— للأسف • وددت أن تعمق هذه الفكرة • لايهم ! فى مرة
أخرى • هناك أسئلة أخرى سوف أطرحها عليك •

من الملابس السعيدة الا يكون هذا الشاب هو القاتل .
 فهو يتصرف بحرية ومثالية . ويلقى على الجميع تهمة قتل العاهرة .
 شاب فوضوى ! لعل هناك الكثيرين يفكرون بنفس الاسلوب .
 أحس نور الدين بالاعجاب بهذا الشاب الذى أيقظ كل أفكاره .
 وسوف يقوده بالتاكيد الى اكتشاف القاتل . لذا حاول الا يفاجئه .
 سأل :

- هل يمكن أن أسمع لنفسى أن أسألك أين كنت بين الساعة
 الثانية والسادسة بعد الظهر .

قال الكردي بدون تفكير : أتمشى .

- حسنا . عذر عام . لكنه للأسف لا يقنع . أليس لديك
 أقوال أخرى .

- يمكنك أن تجد آثار أقدامى . فأنا أرتدى حذاء مميزا .
 ثم قام الكردي كى يشير الى كعب حذائه .

لم يكن أمام نور الدين الوقت ليرد . فقد فتح باب المنزل
 ودخل منه ممرضان . يرتديان الملابس البيضاء وهما يحملان
 نقالة . ادخلهما الشرطى الى غرفة العاهرة القتيلة . فاختمتا
 ثلاثتهم . خرجا بعد قليل يحملان جثة أرنية مغطاة بملاءة . هنا
 انفجرت البنات فى الصراخ وهن يلوحن باذرعهن كالمجانين .
 سد نور الدين أذنيه وانتظر بفارغ الصبر نهاية هذه الزوبعة المثيرة .

ابتسم الكردي وهو يتذكر ذلك المحصل الذى أصابه الزهو
 ومدعيا أنه صديق الوزير . ولم لا .

(٥)

استقبله ضجيج الأحداث واضواء مصابيح الغاز فأحس
 بالهدوء . امتلأت مقهى المرايا فى تلك الساعة بجمهور غفير شغل كل
 الموائد . سار بخطى بطيئة فوق الأرضية المصنوعة من الطوب
 اللبن . يبت الراديو العتيق بعض الموسيقى الغاضبة العالية .
 فتمزج بأصوات وضحكات الجالسين . وسط هذا الحشد الغفير
 ترى شحاذين متجولين . وجامعى أعقاب سجاثر . وباعة يطلقون
 الدعايات . كأنهم بهلوانات فى ساحة عرض . بدت مقهى المرايا
 كمكان خلقة الحكماء . بعيد عن عالم الأحران . يشعر يحيى دائما
 بالاعجاب بهذا المكان الذى يشعر فيه بسعادة أقرب الى الهذيان .
 يبدو الفقر مجسدا فى ملابسهم القديمة . التى تلتصق بأجسادهم
 النحيلة . لم يغسلوا وجوههم خشية ان تظهر نحافتهم أكثر .

زحام حقيقى . شق يحيى طريقا لنفسه . سعيدا بهذه الضجة
 الأبدية . وأن يجد نفسه فوق هذا المكان . فهنا . لا يزعج دمايته

أحد • بالعكس فهي تتناسب مع هذا المكان سرعان ما عرفوه • وأطلقت عليه التحيات الودودة • فى بعض الأحيان يدعى الى تناول كوب شاي • انه يبحث عن جوهر ، لعله ينتظره • فعندما تنقص المخدرات يقع فريسة للمعاناة ، فمعاناة جوهر هي الشيء الوحيد الذى لا يحتمله فى الدنيا لأنها تجعله قلقا • انه يضع كل كرامته جانبا كي يوفر لجوهر نصيبه اليومى من الحشيش • ولانه يقدم مثل هذا النوع من السعادة لرجل • وهى لا تدوم سوى ساعات • فانه يرى أن هذا الأمر أكثر فعالية من كل المحاولات التى لا تجدى والتى يبذلها المصلحون والمثاليون لانتزاعه من هذا العذاب الأدمى • يشعر يحيى انه يقدم أشياء ملموسة ، فالحلول بطيئة والنظريات المطروحة للتخفيف عن معاناة الشعب لا تمثل بالنسبة له الا دعايات سخيفة •

ضحك وهو شارد الفكر •

ودون أن يتكلم ، أحس أنه أسير لقائه الفاتت مع الفتاة الحسنة • لقد نجح فى الدخول اليها من خلال القسيمة • رغم قلقه من نتائج هذه المغامرة التى لا تحمد عقباها بالنسبة لحياته الخاصة •

أولا : لأنه واثق انه لا يكن لها أى شعور بالحب • فالأمر لا يعدو رغبة تنتابه • فهذه الفتاة المتغطرة تبدو كأنها تتجدها • وقد أعطاه رد فعلها ازاء دماسته انطبعا عن مكرها • يرى يحيى أن هناك شيئا غير طبيعى فى سلوكها مما يدفعه أن يستكمل هذه التجربة الفريدة • انها المرة الأولى التى يجد نفسه يهتم بامرأة • • الا أنه لم يتخل عن كبريائه • فهو لا يمكن أن يترك بسهولة هذا المنبع الذى يسليه ويشكل له وجودا حسيما • فليديه ما يكفيه بالنسبة لقانون الاحتمالات كى يعرف أن مغامرة كهذه لن تتاح لرجل مثله قبل ثلاثة أجيال • لذا عليه أن ينتهزها ، ثم ان دروس البيانو

تضيف غرابة على المغامرة • ليس لأن يحيى يحب الموسيقى • فعليه العكس فهو يكرهها بشدة • ولكنه لا يصدق ان الفتاة سوف تعزف يوما أثناء حضوره •

هل يحدث جوهر عنها ؟ عليه أن يجده ، وسط أنوار المصابيح • فكر فى المرايا الضخمة التى تملأ الجدران ، ارتعد بصره الضعيف • تقدم وسط الزحام بصعوبة عندما أحس بيد تمسكه • - عزيزى يحيى • تفضل وشرفنى بالجلوس على مائدتى •

استدار يحيى • انه رجل شاذ معروف • يرتدى جلبابا من الحرير الأخضر ومعطفا واسعا ملونا ، يصبغ شعره وشاربه ويضع خاتما ثقيل فى أصبعه • تاجر أقمشة بالغ الثراء • مشغوف بالأدب ، كثيرا ما شعر يحيى بغموض فى نظرات هذا الرجل •

- ما أخبار الشعر ؟

قال يحيى : يحتضر •

- ولا يهمك • تفضل واشرب شايا معى • فانا انتظر على أحر من الجمر •

- آسف • فانا أبحث عن صديق •

غمز الرجل بعينه وقال : لقد فهمت •

- لم تفهم • فلم أصبح بعد مثلك • وقد يحدث يوما •

- سيكون يوما عظيما • ساكون سعيدا وأنا أعدك ضمن أصدقائى •

قال يحيى محتجا : لا تفكر • مع مثل هذا الوجه •

- لا تنس انك جذاب بالنسبة لى • فانا أحب العباقرة •

- وهل تريد أن تشاركني عبقريتي .

انفجرا ضاحكين . قال يحيى :

- هذا مستحيل لأنني لست عبقريا . السلام عليكم . سادرك

فيما بعد .

- اذن الا تقبل هذه السيجارة ؟

مد ليحيى علبة سجائر فخمة فأخذ منها واحدة أشعلها الرجل

بولاعته الذهبية :

شكرا .

ترك يحيى التاجر الكبير . وبدأ من جديد يبحث عن جوهر .

أين اختفى ؟

لا يراه في أى مكان .

بدأ يشعر بالعصبية وهو يرى جامع أعقاب السجائر يسير في عقيقه ينتظر اللحظة التي يلقي فيها سيجارته . بدا طعم عقب السيجارة رائعا للصغير وهو يدخنها . تتبع يحيى الذى القى سيجارته كى يتخلص من هذه المطاردة رغم أنه لم ينته منها بعد .

هتف الطفل وهو يلتقط العقب : ليحفظك الله .

فجأة رأى جوهر فى محل الحلاق - طراز من الأكواخ التى لا أبواب لها - تنعكس عليه أضواء المقهى فتنبهه يجلس جوهر فوق المنعد الوحيد وقد هذه التعب . انتبه على صوت يحيى :

- تحياتي لأستاذي .

- لقد جئت أخيرا ، يا بني !

انحنى يحيى ناحية الأرض ، ساخرا كأنه يقدم كل احترامه

لأستاذه :

- تحت أمرك دائما . ألن أزعجك ؟

- لا طبعاً . اجلس .

اسرع يحيى لاحتضار مقعد أخذ يجره فوق الأرض ، ثم جلس قريبا من جوهر وهو يلعب وجهه . فى كل مرة يتم نقله بنفس الحفة ، يقال أن وجود جوهر يجعله فى أحسن حال . فتهرب منه كل معاناته ، وتتلشى عندما يلمس أستاذه . وسرعان ما ينسى دماسته .

ران الصمت فى محل الحلاق - على جوهر مما أكسبه قسوة خفية . يحترم يحيى هذا الصمت . يعرف أن صمت جوهر صفاء داخلي وبساطة . لكن فجأة انتابه احساس انه قد أهمل تماما ، رغم انه لم يطلب شيئا أبدا ، يفرق جوهر فى خضم شيء واحد . هو المخدرات ، وبحيوية أخرج من جيبه ورقة ملفوفة ، وفتحها وقسمها الى قطعتين . قدم القطعة الكبيرة الى جوهر . أمسكها دون أن ينبس ببنت شفة ، لفها بين أصابعه وضع منها كرة صغيرة ثم وضعها تحت لسانه وكأنه يضع قطعة من السكر . أحس أن الحياة تعود اليه ببطء وان دمائه تجرى فى عروقه . أغلق عينيه وهو يشعر بالكمال فى هذه اللحظة الرائعة التى حانت بعد ضياع تام . لم يتحرك يحيى ، يبدو مشدوها لطريقة جوهر فى تناول المخدرات بالقلم لسهولته . يعرف أن هناك أساليباً معقدة لتناولها . ويحيى يحب أجواء المدخنين الساحرة . الدخان الكثيف المتصاعد كأنه الضباب ، وخاصة الرائحة الحانقة التى تظل عالقة بالملابس لفترة طويلة أكثر من عطور النساء . هناك خيال رائع يجمع فى روحه كشاعر . لا يحسها فى جوهر وهو يتعاطى المخدرات بالقلم . يشعر يحيى بالحوار أمام كل هذه المحاولات . يقال ان التأثير لا يختلف . وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الحسرة على هذه الطريقة التى ينقصها ديكور الدخان .

أخذ يحرك لسانه وهو يرقب كل حركات وجه رفيقه . يشعر بالمتعة عندما تتنابه فكرة الحديث معه . لكن جوهر لا يزال صامتا حتى الآن . ولم يبق شيء يدل أنه حي سوى أنفاسه الحائرة .

بعد أن ترك الماخور الذي خنق فيه العاهرة الصغيرة . أخذ جوهر يتجول في الشوارع باحثا عن يحيى ، استولت عليه رغبة غامرة في تناول المخدرات . تصور نفسه في مسرحية مأساوية ضاعت أهميتها وسط تلاطم الأمواج . ما أهمية جريمة واحدة وسط العديد من الجرائم التي ترتكب كل يوم بشتى الصور : الحروب والمذابح والاضغوط . بالتأكيد فهو لم يشعر بالشفقة . رغم أن صورة ضحيته تخنقه عبر طرق المدينة . على كل فهو لم يود أن يحترق نفسه في هذا الأمر . لكن كيف يفسر هذه الجريمة ؟ أى مصير ساقه الى دنيا الجريمة والشر . رفض جوهر أن يصدق ما حدث .

لم يتخيل أن مصيرا ينتظره يمكنه الفرار منه أن يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات في إحدى المدارس الخاصة بالشعب ؟ هل قدره هو ان يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات في المدارس الشعبية . هل يخون قدره بالهروب من هذه الأكاذيب ؟ بلا شك فهو رجل مرموق ونتاج حضارة لا تجب ارتكاب جريمة القتل ولكنه يؤمن أنه قد هرب الى الشفافية والسلام والسكينة فوق الأرض المغتصبة التي يعيش عليها نبيل يحب البهجة . ألم ينجح في أن يحضر معه الرعب والاعتقال الى المتصقين بجسده ؟ هل ستنتهى تجربته الى الفشل ؟ لا يصدق هذا .

كان يعرف دوما انه يجب ان يضع في حسبانته عدالة البشر . فلن يمكن للشرطة أن تقوم بتحليل المجردات . فالمصير بالنسبة له يعنى سيف الجلاد . ولن تفهم الشرطة القهر الضاغط . انهم مشغولون بادخال العبيد الى عبوديتهم يعرف جوهر أنهم سسوف

يبحثون عنه بشتى الطرق . ليس لأن قتل هذه العاهرة يمثل بالنسبة لهم مشهدا بشعا غير آدمي . ولكن ببساطة لأنه يزعج طغيانهم ، والمفهوم التالى أن كل مخطيء يجب ان ينال عقابه هو أيضا أحد الأكاذيب التي تستشري في مجتمع مؤلم وقذر هذه هي الاخلاق السيئة التي يقوم بتعليمها وهو يعتقد انها أقرب الى ثروة غير مقيدة كأنها الأمر مؤامرة سيئة ضد الشعب . فليست هناك وسيلة لاحترام الفقراء . لن يبقى له بعد هذه الجريمة - مسوى كذباته القديمة وعماء المعقد تجاه القوى الجينمية . لقد حطم كل شيء وكسر كل الروابط التي تربطه بهذا العالم الكريه لكنه ينتمى الى هؤلاء البشر المطاردين ، الذين يعيشون في بؤرات الخوف ولكنهم يتمتعون بمقدرة طيبة على الحياة .

لا توجد عدالة قادرة على إعادة الحياة الى أرنبه . ولكنه هو - جوهر - حى . وعلى الشرطة أن تكافح ضد عدو حى ، رجل حى من الطراز المرعب ، يشعر بالآلام كثيرة تحيطه ، عليه ان يناضل بكل ما يملك للاحتفاظ بهذه الحياة الجديدة التي تنتمى الى القوى القوي آدمية .

وهو يشعر بالحشيش يقوم بدوره . تحرك جوهر فسوق المقعد ، فتح عينه وابتسم وسط الظلام ، فهم يحيى انه يمكن أن يتكلم أخيرا :

- ماذا لديك لتقوله يا سيدى ؟

- اسكت يا بنى . لقد عشت يوما مشهودا .

- كيف ؟

ابتهج يحيى وهو يدلك يديه . وبدأ وجهه يتحرك أكثر من ذى قبل . فصوت جوهر يؤكد انه سوف يسمع حكاية غريبة .

روى له مأساة الصباح . جاره الميت والمياه الملونة التي غمرت
حجرته وصراخ النائحات .

- أسير في الشوارع منذ الظهيرة . وهذا شيء مرعب .

هتف يحيى : انها حكاية غريبة . تستحق العناية . سيدى .
مثل هذه الحكايات لا تحدث الا لك . بشرفى أنا غيور منك .

قال جوهر : بحثت عنك فى كل مكان . أين كنت ؟

بدا يحيى مهمما . كأنه جزء من السر :

- ذهبت أزور أمى .

هناك شيء ما يتعلق بأم يحيى حاول جوهر أن يتذكره .
ماذا ؟ لقد تذكر الآن :

- سمعت انها ماتت . تصنيت ان يكون الخبر كاذبا . اقدم
لك عزائى يحيى .

قال يحيى ضاحكا : شكرا يا سيدى فالخبر ليس صحيحا .
فهي حية ترزق . وقد نجحت فى أن أجعلها تعطينى نقودا ونصائح
اخلاقية . فقط أردت أن أجمع بعض النقود . ما رأيك ؟

- أعتقد انها فكرة رائعة . وأتمنى لك النجاح .

قال يحيى مغتظبا : اليس كذلك ؟ كنت واثقا انك ستوافق
على . فهي امرأة رائعة .

- من . أمك ؟

- أجل . تقول لى أحيانا كلاما يقطع الأنفاس . رغم أننى
أعرف أنها لا تتعاطى الحشيش .

هل تعرف ماذا قالت يوما ؟

- لا . سأكون سعيدا ان أعرف .

- قالت لى : أنت الآن كبير كى تواجه ربك بنفسك .

اليس هذا رائعا ؟

قال جوهر : لا أفهم .

- لا تريد أن أسير فى طريق الضلال . انظر لى ربك سيدى !

أنت ترانى فى أواجه الله وحدى ولم أصل قط .

- ماذا أسمع . منذ متى تتعامل مع الله ؟

- لم أهتم أبدا . كانت أمى تتولى شئوك .

شرف بيتنا .

لكنه انتهى الآن . مضطر أن أتصرف وحدى .

مبلفا من أجل جنازتها .

- أعرف أن رأيك صحيح . أحيانا .

ظل فوه فاغرا . فسحر الحشيش يجعله يفرق فى هوس .

وتأخذ الأشياء أشكالا مختلفة . يبدو انه لا يوجد مستحيل . يجلس

فوق مقعده . وقد وضع يديه فوق عصاه التى يحتفظ بها بين

سيقانه . فكر فى العلاقة التى تربط يحيى بربه . ويرى أن الله

يقف مع يحيى ويساعده . يبدو كأنه يمارس العديد من أعمال

الايمان معه بشكل يجعله انسانا ضعيفا ومميزا . يبدو الطرفان

وكأن كل منهما يعرف الآخر منذ أمد طويل . يقولان كلاما بالغ

القسوة دون غضب أو أن ترتفع حدتهما . ولكن هل هناك مسافة

فى هذه الرؤية .

يقع كوخ الحلاق على مسافة قصيرة من مقهى المرايا . فوق

رصيف ملأه الزبالة . فى المساء يأتى الشحاذون وجامعو أعقاب

السجائر اليه كى يناموا فيه . يتكدسون كأنهم حيوانات فى حظيرة .

اكتشف جوهر هذا المكان ذات مساء كان يبحث فيه عن مكان
هادئ . ومنذ ذلك الحين يجده أنسب مكان ، أما مقعد الحلاق فإنه
مصنوع لراحته . قال يحيى :

– سيدى . أريد أن أحدثك بشئ .

– قل .

– أنا واقع فى تجربة عاطفية .

– تحياتى . من هى سعيدة الحظ ؟

– فتاة تختلف .

قال جوهر : من هى الفتاة التى تختلف . عهدتك أكثر ذكاء
يا عزيزى يحيى .

– أعنى أنها ليست عاهرة .

– برجوازية .

– أجل . فأبوها موظف .

– يا للبشاعة : هل تحبها ؟

– هل تعاملنى مثل الكردى يا سيدى . لست طفلا .

– وليس الكردى طفلا أنت لا تعرفه . فهو واقع تحت سيطرة
الأدب الأوربى الذى يجعل من المرأة مركز الغموض . والكردى يفكر
ان المرأة مخلوق مفكر تدفعه حاجته القانونية عنها أكثر منه
كشخصية اجتماعية . وهو فى الحقيقة لا يؤمن بذلك فكل ما يطلبه
من المرأة . هو أن يكون معها أغلب الوقت دون أن يدفع لها . لأنه
فقير .

– لكن الأمر يختلف بالنسبة لى فانا لا أود أن أنام معها .

– حب أفلاطونى . اذن فالمصيبة أكبر .

– ليست مسألة حب . ولكنه شئ آخر .

– ماذا اذن ؟

– لا أعرف .

سكت يحيى . لاحظ أن بعض الأطفال الأشعثى الشعر يقفون
على مدخل الكوخ يسمعون حديثهما فى وجوم ويبدون مندهشين لما
يسمعون . قال :

– لا يوجد مدخنون هنا . ولا توجد أعقاب . أنتم تضيعون
أوقاتكم .

قالت فتاة فى الثامنة من عمرها وترتدى فستانا متعدد ألوان :
لا نبحث عن أعقاب . نود ان ننام . فهذا مكاننا .

قال يحيى : اذن تريدون النوم . لكن الوقت مبكرا .
فتنزهوا قليلا .

قالت الصغيرة ذات الشعر المصبوغ بالحناء : أعطنى قرصا .
بدت كأنها دمية صغيرة . قال يحيى : قرص ماذا ستفعلين
به . ألسنت خجولة من الشحادة دعينا فى حالنا . فنحن نتناقش
فى أمر هام .

قالت الفتاة وهى تبور فمها : هيا بنا . فهم فقراء .

قال يحيى : هذا هو عيب الظلام .

ظل الأولاد جالسين قريبا من الكوخ . بينما يتطلع يحيى اليهم
ويسمعهم ينطقون بكلمات بذيئة . لعلمهم يفكرون فى أن يخلوا
المكان لهم . يعرف أنهم سيعودون الى أعمالهم .

– هذه الفتاة تدهشنى .

سأل جوهر : من . جامعة الأعقاب ؟

- لا يا سيدي . ابنة الموظف . لم تشمئز من منظري . بل
ابتسمت لي . اعتقد انها تراني لطيفا .

قال جوهر قلما : دعك من السذاجة . انها ترضى غرورك
يا عزيزي يحيى . هذه الفتاة هي الهاوية .

- نسيت ان اخبرك انها تدرس البيانو .

- لم يستطيع جوهر ان يرد . فقد أزعجوه مرة أخرى . هذه
المرّة بائع أوراق يا نصيب . يمد له آخر ورقة بدت مجمدة قدرة .
يبدو أنه التقطها من الأرض . صاح يحيى :

- كم تكسب هذه الورقة ؟

رد الرجل : ألف جنيه يابك .

- لا تكفى . أليست معك واحدة تكسب عشرة آلاف ؟

- لا توجد ورقة تكسب عشرة آلاف - لا يوجد سوى ألف .
وهذه هي الورقة الرابعة اشتريتها وسيباركك الله .

قال يحيى : اذهب . فألف جنيه شيء طيب للمتشردين .

ابتعد الرجل في الظلام وهو يلعن كل الأسباب التي دفعت
للزواج .

- هل تتصور يا سيدي . ان يكون معنا ألف جنيه ؟

- ولماذا تفعل يابني ؟

- يمكنك ان تسافر الى سوريا .

أثار حلم السفر جوهر بدلا من أن يمتعه . فهذا يذكره
بجريمته . لقد انهار الحلم . هذا الحلم الذي لن يتحقق أبدا .

افسد حلمه الاوحد . سوريا الفردوس التي يريد أن يقضى بها
أيامها سعيدة . من الصعب التخلص من تأثيرها عليه . ليست
حلماً . ولكن التخلص من الحلم ليس سوى الخلاص الأبدى . قال
يحيى :

- يمكنني أن آتي معك .

أدار جوهر رأسه الى رفيقه . كيف يخبره أن هذا مستحيل .
كيف يحدثه عن هذه الجريمة البشعة . لا يشعر أنه قادر على
الاعتراف . ربما سيروى له كل شيء فيما بعد . فغر يحيى فاه .
وهو يشاهد شبح الكردي واقفا أمام الكوخ :

- لقد حدث أمر مرعب . ولا أستطيع أن أتماسك .

لم يشعر الرجلان بالقلق لهذا المدخل . فهذا أمر مألوف .
فالكردي يترك الناس يتصرفون دائما كأنه كأنه رجل يهرب من ممارسة
الجنس أن يترك له وقتا لاستعادة أنفاسه وهكذا ظلا سباكين
لا يسألان . انتظر بقارغ الصبر أن يقول لهما السبب في اضطرابه .
وسط هذا الصمت القاتل أطلق الكردي تنهيدة وقال :

- ليس الأمر مزاحا . فقد دخلت بيت الست أمينة ووجدته
يجمع رجال الشرطة .

هتف يحيى : حملة آداب .

- لا . فقد اعتقدت هذا في أول الأمر . لكن الأمر أكثر
خطورة . لقد قتلت الفتاة آرنية المستجدة .

وهو يتوقع تأثير ما يقول . هذا الكردي . وهو يعتبر أنه
نقل اليهما خبر المأساة .

سأل يحيى :

- هل عرفوا القاتل ؟

- لا . كل ما عرفوه انه لم يسرق شيئا . لقد خبق الفتاة .
وهذا يثير جنون الضابط . ليست لديه شبهات في أحد . جئت
أخبركم الا تذهبوا هناك . لقد استجوبني . وكان أمرا صعبا .

سأل يحيى :

- أى نوع من الاستجواب . هل ضربوك ؟

- لم يجرؤ أحد . عندما قلت أننى موظف حكومة غير الضابط
لهجته معي . شخص غريب .

أتعرف انه تكلم معي مباشرة باللغة الانجليزية ؟

قال يحيى : أمام . بالانجليزية :

- طبعاً . لكن هذا لم يعجب الست أمينة . لم تصدق أن
هناك أشخاصا يتكلمون باللغة الانجليزية فى منزلها .

- أعرف هذا النوع من الضباط . انه يخدعك .

قال الكردي :

- لا أحد يخدعنى .

بدأ يتكلم عن الاستجواب . واحتفظ لنفسه بدور البطل
الثورى فى ردوده على الضابط . . وهو يؤكد ان الاستجواب كان
عنيفا لكنه دافع عن نفسه بكل قوة .

- لقد تصورته غيبا . لا يعرف كيف يخرج من هذا المازق .

لاحظ أن جوهر لم يقل شيئا فلمصمت أستاذة أهمية خاصة .
ويبدو غير مقبول التفسير . ترى هل مات فوق مقعده ؟ قال :

- أريد أن أعرف رأيك يا سيدى . جريمة قاتمة . اليس
كذلك ؟

رد جوهر كأنه يحدث نفسه ؟ ربما كان خطأ يابنى .

- خطأ . من قال ذلك يا سيدى ؟

ثم انفجر ضاحكا .

- نسيت لأخبرك انه كان يوجد رجل . زعم أنه صديق
وزير . . .

فى هذه اللحظة . دخل رجل حافى يرتدى أسملا . دفع
الكردى ودخل الحانوت .

بدا نائرا :

- أين الحلاق . أريد أن أقص شعرى .

قال جوهر وهو يهب واقفا . هانذا . تفضل حضرتك
بالجلوس .

جلس الرجل فوق المقعد . وغط فى نوم عميق . قال جوهر
وهو يسمع شخيرته :

- هيا بنا .

قال الكردي : أريد أن أتناول شايًا . فقد جفف هذا الأمر
حلقى .

سار الرجال الثلاثة ناحية أضواء المقهى . وهم يسخرون من
هذا المحصل الذى رآه الكردي فى الماخور . لقد نسوا الجريمة .
وكان جوهر أكثرهم نسيانا .

في الساعة الحادية عشر صباحا . جلس الكردي خلف مكتبه في وزارة الأشغال العمومية وقد بدأ الذباب في الطنين من حوله . الغرفة كبيرة واسعة مضاءة من خلال النوافذ العالية وتوجد بها مكاتب عديدة يجلس الموظفون خلفها . فيبدو الأمر بالنسبة له أكثر بشاعة من السجن .

- انه سجن من نوع خاص . وضعوه فيه بصفة دائمة مع سجناء القانون العام . لقد وافق الكردي ان يكون مسجوناً . ولكن شريطة أن يكون وحده في الزنزانة . تحت شعار قضية سياسية . ويقع باحزانه في خليط من المشاعر النبيلة الارستقراطية لم يكن واعياً لها أبداً . كيف يفكر على سجيته في مشاكل ذات صبغة عالمية أمام هذه الوجوه المليئة بالغبار . وقد نذرت نفسها للعبودية بلا حدود . وكى يعلن احتجاجه على هذا الظلم . رفض الكردي ممارسة العمل . راعياً ان يحقق استقلاله الروحي . ولأن أحداً لا يلحظ هذا الاحتجاج في داخله . فانه يتضايق .

ليس سبب هذا هو المكر ، أو الكبرياء في ان يمارس عملا يمكن أن يمارسه الأطفال ولكنه لأنه محبوب بصورة تثير الرثاء . يزامله أشخاص لا يستطيع ان يحتملهم فمعهم تبدو الحياة شيئا آخر . وكأنها حلم مزعج . ماذا فعل كي يلقي عقابا كهذا ؟ يجد الكردي نفسه في مواقف ميتوس منها ، ان يرى نفسه يفر من هذا العدم . وهذا الروتين البيروقراطي . الغبي . الذي لا جدوى منه . يشك في مصيره . انه لا يعرف ما يمكنه ان يفعل . فعندما يشعر انه فريسة لقلق أسود - مثلما يحس في هذه اللحظة - يتخيل مأساة الشعب والضغط المرعبة التي يقع ضحيتها . يحلم بثورة قوية دائمية . ولكنه اذا خرج الى الشارع واختلط بالناس : فان مأساة الشعب تصبح أسلوبا . تفقد كل عنفها وقوتها التفجيرية . يشعر أنه مجنوب لأدق التفاصيل الرائعة لهذه المأساة . لعظمة هذا المزاج لا ينتضب . يحب في هذا الشعب الفقير شغفه بالمرح . ورغبته في السعادة والأمن تحدث وهو يعتقد انه أقل البشر حظا ؟ أين البؤس إذن ؟ أين قوى الضغط ؟ قيل ان هذه الصور التي تترى في موضوع هذه المأساة في العدم مثل الحيسالات التي يشاهدها أثناء نومه . على الكردي أن يحاول جاهدا اكتشاف العنصر اليام في تمرده . وعليه ان ينغمس في دموعه . أو تهزه نكتة كبيرة .

ليس كل هذا بالثمن الهام . فقد أراد الكردي شعبا مقصلا على مقاسه : حزينا تحركه مشاعر الانتقام . ولكن أين يجده ؟

يحلم ان يكون رجلا مؤثرا . تتأجج دماؤه من القلق . هذا العمل السخيف . الذي يسد به رقعه . ليس الا لتقليل عطشه نحو العدالة الاجتماعية . انه حزين لأنه يقضى أغلب وقته مع زملاء أكثر بؤسا منه - متزوجون وآباء للعديد من الأبناء يبدو أكثر بؤسا مع نهاية كل شهر يأتي الزملاء الذين يرتبط عليهم بالكردي

ويقفون صفا أمام مكتبة . يشعر الكردي في هذه اللحظة انه صاحب عمل يدفع لهم أجرهم أما النقود التي تبقى له . فعليه ان يصرفها كي يعيش فهو يحيا حياة بالغة البؤس . ولكنها كريمة . المظاهر شيء هام بالنسبة له . على سبيل المثال فعندما يضطر أن يأكل فول مدمس . يجده نفسه يحدث البائع بأنه لا يأكل سوى الفراخ وان كثرة أكلها أفسدت شهيته . ورغم أن البائع لا تخدعه هذه الكلمات . الا ان مظهره يقلعه بذلك .

من مقعده يتأمل هؤلاء الزملاء المساكين ويرى فيهم سلسلة من العبودية . وهذه الساعات الطويلة التي يقطعها من حريته تجعله حساسا تماما لآلام البشر يحرك مقعده وهو يطلق تنهيدة عميقة . يرفع العبيد المشغولون بالأعمال الشاقة رؤوسهم اليه وهم يلقون عليه نظرة غامضة . فيرد الكردي عليهم بنظرة عدوانية . يحتقرهم جميعا . لا يمكنه أن يصنع الثورة مع ناس مثلهم . انهم هناك منذ سنوات . كم عام . لا أحد يعرف . متصقنين بأماكنهم . تغطيهم الأتربة . وأوجهه تشبه المومياءات . متحرف حقيقي للرعب عندما يفكر أنه سيغدو مثلهم يفكر توا في الفرار . ثم يشعر أن ساعة رحيله لم تحن بعد . ويظل يعاني في هدوء .

وكي يفر من ضغط زملائه . حاول الكردي أن يهرب الى أحلامه كعاشق . لم ير نايلة منذ ليلة الجريمة . أي منذ ثلاثة أيام وبدأ يشعر بالأحداث المشثومة التي أحاطت بالمأخور الذي تحرسه الشرطة . لذا تلزمه المخاطرة كي يقوم بمغامرة . فكر الكردي في الفتاة وتخيلها مريضة وحيدة . تنوق لرؤيته وتلفظ اسمه عند النفس الأخير . ظل يفكر في هذا الأمر فترة طويلة . ثم تملكته الرغبة أن يسطر خطايا لنايلة وأن يكلمها عن حبه وعن معاناة الشعب . للأسف فانه لا يستطيع أن يضع فكرته موضع التنفيذ :

لأنه لا يجد قلبه . تذكر أن رئيس المكتب قد أخذه منذ فترة .
بإدعاء استعماله . في أول الأمر أحس الكردي بالغضب . ولكن
بسرعة شعر بشئ ينزاح عن صدره فلديه الآن سبب يعتذر به عن
عدم كتابه الخطاب . وهو ان نائلة لا تعرف القراءة .

يطير بعض الذباب في الغرفة . يحط على أنفه . حاول الكردي
أن يضرب احداها لكنه فشل . يشعر انه يفتقد الحفة الضرورية
لهذا النوع من الاصطياد ، من جديد وللمرة العاشرة أمسك الصحيفة
التي فوق مكتبه وتصفحها بعينه . هناك عناوين ضخمة تعلن أن
العالم يتسلح من أجل حرب قادمة . يبدو هذا في الصحيفة كأنه
شئ بعينه ولا يوجد له صدى مباشر في الحياة اليومية . ثم اعلان
الأمر بطريقة مبتذلة كان الصحف تؤمن بالأمر الواقع . ولكن
الكردي وجد نفسه في هذه اللحظة في حالة نفسية جعلته حساسا
لاقل خطر فاعلان مثل هذا التسليح يبدو له للنوعية الأولى انعكاسا
لواقع شرس همجي . فهي ليست كلمات مطبوعة بصورة مبسطة
في صحيفة . ولكنها تؤكد احتمال نشوب حرب موجهة ضد البشرية
وخاصة ضده هو كأنهم يحفرونه ان يشهر كل أسلحته . شعر
بالم مرعب . سوف تكون المذبحة مؤلة سوف يسلمون جلده .
ولكن ماذا يفعل انذاك ؟ ظل جالسا خلف مكتبه لا يقوى على
الحراك . عليه أن يفعل شيئا . أولا أن يشتري سلاحا في عالم
تتسلح فيه كل الدنيا . ومن غير المجد أن يظل أعزل . انتظر
فسوف يقتلونك . . . ولن يتركوك تهددهم . يجب أن أتحدث مع
جوهر ؟ ابتسم وهو يتصور جوهر مسلحا بمدفع رشاش . انها
المررة الأولى التي يبتسم فيها هذا الصباح .

أمام هذه الفكرة المسلية لم يستطع الكردي أن يقاوم لفترة
طويلة ذلك الغذاء الخارجي لقد أدى دور العدالة . قام من مقعده
وصاح :

— عز الدين أفندي .

انه رئيس المكتب . رجل عجوز ضعيف البصر للغاية . تجعله
نظارته أشبه بحيوانات ما قبل التاريخ . يلتصق وجهه باللف
الذي يقرأه . سأل بصوت أجس :

— ماذا هناك ؟

— أصابتنى دوخة .

— ولا يهمك يا بني . صدقني نحن نأسف لهذه الدوخة .

اعتاد الكردي على هذه الأمور يعرف أن رئيس المكتب يعتبره
ممتازا . وأن مجرد وجوده يعني انه موظف كفء . فهو مثال سئ
لزملائه المساكين .

— السلام عليكم .

قال عز الدين أفندي : لا تأخذ الرجوع في حسابك ، بل
خذ راحتك .

عز الكردي كتفيه . ودون أن ينظر الى زملائه المترهلين .
خرج من الغرفة . لم تكن الثورة بالنسبة له سوى تخفيف لتبرمه .
ذات مرة تخلص الكردي من جلاديه في حديقة الوزارة . لم يفكر
كثيرا ، الشمس صحوه . وقد ولدت فيها نسمة الربيع أفكارا
حساسة ، عجل خطاه . آملا أن يرى نائلة ، تملكه الفضول ان
يعرف شيئا ما عن الجريمة . ثم اختلط بهذه الجريمة . ولا يمكنه
أن ينساها فقد جعله استجواب ضابط الشرطة يشعر بلذة
الحوار التلقائي حيث أحس انه قريب من الخطر . الخطر الحقيقي .
فلم يكن الأمر مزاحا . لم يكن الضابط يلهو حين استجوبه . ارتعد
الكردي حين تذكر هذا الموقف فلأنها تجربته الأولى فهو لم يشك

فيما تمثله السلطة . يريد أن يقف ثانيا أمام هذا الضابط الجاهل .
فهو لا يخشى أحدا . ماذا سيحدث لو قبض عليه ؟

تملكته دهشة . شعر انه يفكر في الضابط دون عدا . أو حقد .
ولكن بفرحة وبمتعة سادية . غريب ! تسأل . حتى الآن فإن
مشاعره نحو نور الدين قد صبغت بحقد ثابت يمكنه من اختبار
قوته . اكتشف فجأة شيئا غريبا . فنور الدين ليس ضابطا متعجرفا .
ولكنه فريسة رغباته . والمتاعب تلحق به . وخلف هذه الأكذوبة
ووراء الضغط الذي لا ينتهي والذي يمارسه على العديد من الناس
فانه يمتلك وجها جديدا . وفي هذا الوجه فكر الكردي في مشاعره
المضطربة . حاول ان يتذكر حادثا واحدا بداله أثناء الاستجواب
خارجا عن حدود الروتين البوليسي من عو بالضبط ؟ أجل . لقد
تحدث معه باللغة الانجليزية : اللغة الوحيدة التي يفهمها . ترى
لماذا ؟ كان هناك شيء ما في هذه اللغة الغريبة . كان نور الدين
قد ترك استجوابه وأراد أن تكون فيما بينهما رابطة من المحبة
تذكر الكردي منظره البهيج وصوته الصافي . وقد امتلأ بثقة
تنفق مع مظهره عندما حدثه عن علاقته بالفتاة نايلا . أحس أن
الضابط قد خرج عن مألوف وظيفته الرسمية كي يغدو انسانا
محبوبا . جذابا وقد كان . يا الهى : لقد أدرك الآن أن نور الدين
ضابط الشرطة يمثل نموذج الضابط الشريف . وليس غليظا بالمرّة .

وعندما توصل الى العمق الانساني لهذا الاكتشاف . عبر
الكردي حي الوزارات ثم دخل في حارة شعبية . ووجد نفسه واقفا
أمام بيت الست أمينة وأثناء طريقه لم يكن يفكر في هذه الفروق
الاجتماعية التي اعتاد ان يكررها بوتيرة واحدة . ففكرة أن الضابط
شخص جذاب قد جعلته بالغ السعادة ونسى موقفه ضد السلطة .
ونحو الحوف الذي أحسه خلال الأيام الأخيرة والذي لم يبع به .

الى تفاؤل رائع . بالتأكيد فهو لا يرحب جانبه ولهذا يسرع الآن
للقاء نور الدين .

كست وجهه ابتسامة رضاء عندما طرق على باب المنزل .
هتف زايد :

الكردي أفندي : يا الهى لماذا تجيء هنا ؟ فالمنزل مغلق
ونحن لا نعمل .

قال الكردي : انها زيارة ودية . دعني أدخل .

نحن مراقبون . ألم يرك أحد ؟

لا . لم يرني أحد . اهدأ . فأنا الرجل الخفي .

أدخل . فعين الشرطة علينا .

دخل الكردي ونظر الى زايد وهو يغلق الباب .

ألم تشعر انك في سجن ؟

قال زايد بصوت مرتجف : هيا . هيا . يا كردي أفندي .

أرجوك لا تمزح . كدت أن نموت من الانتظار .

من هذا ؟

لم يرد زايد . رعقه واختفى في الممر وقد أصابه القلق .

كانما لدغه ثعبان .

ظل الكردي واقفا في الصالة . أحس بالرضاء لهذه النكتة .

بدا له انه لم يأت هنا منذ سنوات . ورغم انه لم يتغير شيء في
الغرفة . المائدة والمقاعد في نفس أماكنها . حتى الست أمينة التي
بدت كأنها لم تتحرك من مكانها منذ ليلة الحادث المشؤم حين غزت
الشرطة منزلها . رآها الكردي في الظلام متكومة فوق الأريكة .
أسندت يدها على خدها . وبدت كأنها تستحق الرثاء .

— اقترب منها — وقال بوقار :

— تحيائي يا امرأة • لا تقلقى فقد جئت لأدافع عنك •

رأته يدخل ويكلم زايد • لكن بدا أنها لم تعد تهتم بهذه الضجة • قالت وهى تنظر اليه كأنه شبح :

— هل أنت مجنون لتجئ هنا ؟ لقد منعونى من استقبال زبائن • هل تريدنى ان أموت ؟

— لست هنا كزبون يا امرأة • لقد جئت لرؤية خطيبتى •

— خطيبته اطلبوا هذا واسمعوا ذلك •

— أجل خطيبتى ! اذا كنت لا تعرفين فاننى أخبرك •

تهددت الست أمينة وسكتت • لقد اعتادت الا تتعامل مع المجانين منذ طفولتها • وبدا لها ان الكردى قد فقد صوابه • كأنما لم يعد يكفيها غباءاته • سألته بصوت أجش •

— ومتى حفل الزفاف ؟

— قريبا جدا • جئت أعلن عليها نبأ سارا •

— حسنا اجلس فأنا أود أن أكلمك •

أخذ الكردى مقعدا وجلس قريبا من الأريكة •

— ماذا لديك لتقول •

بدا أن الست أمينة تخرج من سباتها لأول مرة • تحركت فوق أريكتها • فرغم انها تخشى الشرطة الا أن زيارة الكردى قد ملأتها بالسعادة • لقد وجدت أخيرا شخصا يمكنه ان يلحظ روحها الميتة • فهذا الموقف المأساوى فى حاجة الى من تثق فيهم • وليس أمامها أحد توليه ثقته • فالبنات غيبات ومشغولات بالبيكاه حاولت ان تحدث زايد عن متاعبها لكن بدا ان الخادم خائف من الشرطة •

ويود أن يرحل لقد جاء الكردى فى موعده : فسوف تموت بعد يوم أو يومين من الاختناق •

— هانت ترى ماذا حل بى يابنى ؟ بالله ماذا أفعل ؟

قال الكردى : ولا يهمك •

— كيف • هل ترى أن هذا أقل أهمية • انها جريمة قتل

فى بيتى •

— يحدث هذا فى أحسن البيوت • صدقيني • انت تلبسين

الأمر أهمية لا داعى لها •

— ليسمع الله منك يابنى ؟ أشعر كأننى أصبحت عجوزا •

ضحك الكردى ساخرا : أنت • عجوز •

— أسكت • فأنا فى سن أمك •

لم تكن احتجاجات هذه المرة بل اعتراض • والكردى يعرف

ذلك وهو يراها ممددة فوق الأريكة مثيرة • فكبرت فى رأسه •

أما الست أمينة فانها تفكر فى شئ آخر • فى ذلك الحوار الذى دار

بلغة أجنبية فى تلك الليلة المشهورة بين الكردى وضابط الشرطة •

مالت نحو الأمام • أمسكت ذراع الشاب وجذبتة اليها :

— انظر الى وقل الحقيقة •

سأل الكردى وقد أصابه القلق من طريقتها : ماذا تودين

أن تعرفى ؟

هل صدقت المرأة فعلا •

— قل لى • ماذا قال لك باللغة الانجليزية ؟

— من يا امرأة ؟

— ضابط الشرطة • الذى كلمك بالانجليزية • لم افهم شيئا •
أعرف انه كان بالانجليزية لست غبية ، فأنا أعرف اللغات •

— حديث خاص وليس عن الجريمة •

— هل أنت متأكد ألم يكلمك عنى ؟

— ولا كلمة • بشرفى • التزمى الهدوء •

— لقد أذانى • ماذا فعلت لهذا الرجل ؟ لماذا يعاملنى هكذا ؟
هل أبدا قاتلة ؟

— مهنته اخافة الناس • وأنا أيضا • لقد حاول ان يثيرنى •
ولكننى أكررها عليك • فالأمر ليس مهما للغاية •

— أود أن أصدقك •

فكرت لحظة • قال مبتسما :

— أعتقد هذا •

— ماذا تقصد ؟

— لن يلزمنى وقت طويل كى أعرف أى نوع من الرجال هو •
ليحفظنى الله •

تراجع الكردى فى مقعده وانفجر ضاحكا :
— حقا ؟

ردت الست أمينة : كيف لم تعرف • بعينيه الرقيقتين لاحظت
ذلك • وكأنه سيقبلك على شفقتك •

قال الكردى : أشك فى ذلك •

لم يفت الكردى انها قد كرهت نور الدين منذ الوهلة الاولى •
كيف فكرت فى هذا الأمر المخزى وهو الذى يسخر من السلطة •
قالت :

— طالما انك رقيق معه • حاول أن تغالزه •

— ماذا تقولين يا امرأة • فأنا أكرهه كرها شديدا • من
تصورينى • لست وغدا كما تعتقدين •

— لا تفعل هذا يا صغيرى ! تريد ان تحطمنى • انظر أى حزن
يغلف البيت • وهؤلاء البنات اللاتى يقضين أوقاتهن نائمات • وقد
حل التحس عليهن • كيف أجعلن يعدن لتذوق العمل ثانية •

قال الكردى : جئت لانفذك • فلا شئ يمنعنى •

ثم قام •

— أتركك الآن • تحياتى • هل تنام نايلة فى حجرتها ؟

— نعم • ألم تسمع • قلت لك انهن نائمات • لا يتصورن
أن أحدا سيطرق بابنا •

أنا وحدى هنا حاول الا يراك أحد وانت تخرج • يبدو ان
هناك مخبرا يقف أمام المنزل •

قال الكردى واعدا : لا تقلقى • سأأخذ حذرى •

بدت حجرة نايلة مثل بقية غرف البنات مشغولة بهن • وفى
كل مرة يعبر الكردى العتبة يحس بحزن شديد • نوع من الهم
الشديد • يرجع هذا الاحساس المعقد لرائحة الأدوية التى تنطلق
من الغرفة • هذه الأدوية المخبأة فى الدولاب ذى المرأة حتى لا ينقر
الزبائن • لا يمكن ان يربطهم فى أفكاره • لقد عرف منهم مرض
عشيقته • والمرض ينخر فى نايلة حيث لا تظهر أى جروح ظاهرة •

ولا يمثل بالنسبة له سوى نوع من الشفقة في الواقع فان هذه
الروائح تجعله في وضع مربك • فيشعر كأنه في غرفة مرضى •
ويثير هذا الاشتزاز • لقد جاء بدافع ممارسة الحب وليس بدافع
الشفقة •

انقبض قلبه وتملكه احساس مهيّب وهو يرى الفتاة ممددة فوق
السرير • بدا وجهها شاحبا مكسوا بحزن غريب • لاهثة الأنفاس •
تعرف عليها الكردي بصعوبة وخلال لحظة نسي رغبته ولم يفكر
سوى في انقاذها من موت محقق ومصير يلقي نفسه في طريقها •

اقترب منها ونادها :

- حبيبتي •

فتحت نايلة عينيها ونظرت اليه بدهشة :

- أنت ؟!

- أجل يا حبيبتي • كيف حالك ؟

- منذ متى وانت قلق على صحتي ؟

احسنت بالمهانة • كأنها تود ان تظل هادئة في حديثها •
اشارت انه لا يستطيع شيئا بالنسبة لها •

- لم أستطع أن آتي قبل ذلك • ألا تفهمين أن المنزل مراقب
من الشرطة ؟

- اذن فالشرطة تخيفك الآن : كنت أتصور انك يمكن أن
تخترق النيران لأجلي •

- حقا يا عزيزتي • ولكن لا يتعلق الأمر بالشرطة • الحقيقة
افني كنت مشغولا بأشياء أخرى • يجب أن أخرج من هنا بسرعة •
لقد قررت الا تستمرى في هذا النمط من الحياة •

- قررت • حسنا • دعني أقول لك انها حياتي • ولا أريد
شيئا آخر •

- افهميني • اود أن أراك سعيدة •

- يا الهى • كيف أعتمد عليك في أن تجعلنى سعيدة ؟ فذلك
الصغير في الوزارة لا يمكنه أن يجعل قطا سعيدا •

- سوف أكسب عما قريب الكثير من المال في صفقة هامة •
صدقيني •

لم تكن تصدق كلمة واحدة مما يقول • فهو أقل أهمية • المهم
بالنسبة له أن يخمد غضب نايلة بكذبات ملفقة وتصدقها • فهي
لا تطلب سوى أن تصدقه • تركت نفسها تستمع لكلمات حبيبها
المنمقة • هذا الحب الرائع الذي تكنه للكردي يجعلها تشعر بالفخر •
فهو يختلف عن كل الرجال الذين قابلتهم في بيت الست أمينة •
رغم انه يتصرف كالصعاليك • الا أنه يسحرها بوضعه الاجتماعي
فالكردى موظف حكومة • ويمثل جزءا من طبقة عالية من المجتمع •
يخاف على مكانته • لم تفسر نايلة هذا الاحساس الغريب الذي يبدو
ثقيلًا على الشاب • في أول الأمر اعتقدت أن مرضها سوف يبعده
عنها ولكن على العكس • فقد دهشت وهو يقترب منها أكثر •
جعلها هذا الموقف في أمر حرج فهي تجهل ان الكردي يعتبرها
ضحية لنظام اجتماعي يكرهه ، وانها سواء كانت مريضة أم سليمة
فهي تمثل صورة لعالم يسير بقانون الوراثة •

فهم - في صمتها - ان حالتها الجنونية قد مرت ، جلس على
طرف السرير ، بدأ يضع رأسه عليها ويداعبها • تركته يداعب
يديها • ثم وجهها وجسدها • بدت سعيدة • ولعت عيناها ببريق
حار • كم كانت لحظات البعس طويلا • فجأة تعلق باحضانه
وانفجرت باكيه :

- ماذا بك يا عزيزتي ؟

- لا أستطيع أن أنسى المسكينة أرنبه أبدا .

قال الكردي : اهدئي ولا تفكري . لن تعيدها بالبكاء . ليس
بأيدينا شيء .

- اسأل من يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء .
دون سبب يذكر .

- بالله لا أعرف . لكنه ربما رجل ذكي .

- من قال لك هذا ؟ ما الذكاء في قتل فتاة مسكينة ؟

- على كل فلن يقبضوا عليه طالما تولى التحقيق ضابط جاهل
كهذا .

- هل رأيته ؟ هل استجوبك مرة أخرى ؟

- لا . ولكن أتمنى أن أراه يوما . فلدى أشياء كثيرة سألقنه
أيها .

- ماذا ؟ قل لي .

أطلق الكردي ابتسامته وقال :

- لا يتعلق الأمر بالجريمة . ولكن بأمر شخصي فيما بيننا .

- استحلقتك الا تلتق بنفسك الى التهلكة معه . أنا أعرفك .

قال محتجا : وهل أنا طفل أنا لا أخشى أحدا . أما هذا

الضابط . فسأفعل به ما يحلو لي فعلا . لم يعد نور الدين خصما
بالنسبة له . حتى الآن . فالكردي يعتبر الجريمة كعمل شخصي
بعيد تماما كأنه لم يحدث . فالمجرم موجود في كل مكان . والبنت
أرنبه لم تختنق وحدها . تسأل الكردي ان كان يعرف كل الناس

الذين يأتون الى بيت السم أمينة . ويتركيز حاول ان يتذكر كلا
منهم ولكنهم كانوا بعيدين عن الاتهام في جريمة كهذه اختفى فيها
الدافع .

سأقته أفكاره الى تصفح وجوه البعض . لا . فكر أن يقبض
على القاتل . لكنه لن يبلغ أبدا عنه يود أن يعرف الأسباب التي
دفعته الى ذلك لعلها جريمة سياسية طالما أنه لم يسرق شيئا .

- المهم هو ان يعرف السبب .

نظر الى وجهه في المرأة . وتذكر الأدوية المحبوسة في الدولاب .
فأدار رأسه .

- سوف أخلع ملابس .

قالت نائلة : الا تفكر سوى في ذلك ؟

امتلا صوتها بالمرارة ، رد الكردي :

- أجل يا حبيبتي فيما تودين أن أفكر ؟

- كيف يمكنك أن تحب فتاة مريضة مثلي ؟ أنا دميعة الآن
للمغاية .

- المهم هو جمال روحك . ألم تفهمي . أنا أحب روحك .

وكي ترضى نائلة صديقها . أثرت الصمت . ولم تحاول
مناقشته . فهي لم تعرف أبدا حقيقة ودافع حبه المزعوم . أي أفاق
هو ، يزعم أنه يحب روحها . وهذا سبب قوي . رآته يخلع ملابس
ويضعها منظمة فوق المقعد . وذلك الغبي . من يصدق . ودت
أن تضحك . لكنها أثرت الصمت . لم تكف عن التحديق فيه

بعينين يملأهما الأسى . انها تفكر في القاتل . لقد تولد الحزن منذ تلك اللحظة المأساوية التي سمعت فيها صراخ الست أمينة ونواح البنت وحيدة في غرفتها . فهمت معنى الأصوات . تملكها اكتئاب شديد . وفيما بعد بدأت ترى تقارباً بين الجريمة ووجود الكردي في ذلك اليوم في البيت . هذا التقارب البسيط وموقف الشباب أثناء استجواب الشرطة يكفى لخلق شك لا يحتمل . فهل هو القاتل ؟

أثناء الأيام الثلاثة التي لم تر فيها نائلة صديقها حاولت أن تتخلص بدون جدوى من هذه الوسواس المرعبة . ولكن كتمان الكردي غموض وعلاقته بضابط التحقيق يقويان من شكوكها . ودت أن تسأله . لكنها لم تجرؤ .

الآن . يقف الكردي . رغم أنه بقي وقوراً . فقد نسي أن يخلع طربوشه . فجأة أدرك ذلك فخلعه ووضع فوق المقعد على ملابسه المنظفة . ثم تمدد قريباً من الفتاة وضمها الى صدره كأنه يحتمي بها .

— قل لي . ألم يكن أنت ؟

— من أنا يا فتاة ؟

— الذى قتلها . .

— ماذا تقولين . هل جنتت ؟

— فكرت في هذه الأيام انه أنت . أنا خائفة . أليس أنت ؟

— بالتأكيد لست أنا . من ادعى عليك هذا ؟ لم أقتل أحداً .

فكر وهو يضع رأس نائلة على كتفه في أنها تشك أنه مدبر الجريمة .

أحس بالذعر وطرأت على ذهنه فكرة جنونية . فلو جعلها تصدق انه قاتل العاهرة الصغيرة . فبماذا يخاطر ؟ انها فرصة غير طيبة أن يتدثر بمجد عاطفى في يوم مكفهر .

أحس بالسعادة لفكرته . فكر أن يمارس الحب . ودون أن يتحرك بدأ في مداعبة اذنها وهو يهمس لها ببعض الكلمات البذيئة .

— عندما أراد أن يملكها . نظرت نائلة في عينيه وقالت :

— أقسم لي أنه ليس انت .

— أقسم لك . هيا دعينا في هدوء ، ولا تتكلمي عن هذا

لكن في لهجته رنة شك . لعلها لا تصدق . شعرت نائلة أن دمائها قد بدأت تتسلخ في عروقها . وظلت لفترة طويلة باردة لا تتحرك بين ذراعيه .

(٧)

جعلته قذارة المكان أكثر احساسا بالدونية . فى محل
الكلوانى المثير للتقزز . يقع فى مكان بعيد من أحد الأحياء الشعبية .
فى منطقة يؤمها البشر . والكلاب الضالة . هذا المكان نموذجي
لمثل هذه المقابلات التى تهيم نور الدين . اختاره دوناً عن الأماكن
الأخرى كى يخفى علاقاته السرية . هنا تقل المخاطرة . حقاً ان
أيا من هؤلاء الأصدقاء، الشبان لا يشاركه أفكاره . فهم لا يكونون
سعداء وحين يدعوهم الى هذا المكان الذى يصر نور الدين أن يتناول
الحلوى فيه . يقدمون حلوى غير شهية خاوية الطعم . يتساءلون
إذا كان نور الدين لا يود ان يكبح جماحهم . يشعر نور الدين نفسه
بعدم ارتياح فى هذا المكان ويخفى الظروف التى تجبره أن يخفى
نفسه كأنه متأمّر . كيف له أن يتصرف ؟ خزى ضابط الشرطة ليس
مصنوعاً كى يسهل له الأشياء ، ففى أى مكان يذهب يشعر بالعيون
مركزة عليه . ويحس أنه يتمشى بدون ملابس .

وكى يأخذ حذره أكثر . اختار نور الدين مائدة فى نهاية
المحل . يجلس أمام سمير الذى أثر الصمت . فهو لم يفتح فيه
منذ أن جاء ، يوجد فوق المائدة . طبقان يحتوى كل منهما على قطعة
من حلوى رديئة الصنع . لم يلمسها أى منهما . فهو لم يطلب
الحلوى الا كشكل اجرائى . ربما لأنه جوعان ، تكلم نور الدين كى
يحطم هذا الصمت :

— الا تأكل ؟

لقد أخطأ . أبدى سمير استمئزازه . وهو ينظر الى نور الدين
بازدراء :

— اتود أن آكل هذا فعلا يا سيدى . من تتصورنى ؟

— معذرة . يا عزيزى سمير . لم أفكر جيدا . فأرجوك

الا تلمسها .

— بشرفى . لقد تعمدت هذا .

— ماذا ؟

— ان تدعونى الى مكان فذر كهذا .

— لقد شرحت لك اننى لا استطيع أن أذهب الى أى مكان آخر
حتى أوفر على نفسى مقابلة أشخاص أعرفهم .

— لماذا ؟ هل تخجل منى ؟

— ليس هكذا . تعرف جيدا يا سمير . أفهم أنه من الصعب —

مثلك — أن أجلس هنا لكن الظروف تحتم .

— أتسمى هذه ظروفًا ؟

— أرجوك . هدى نفسك .

استعداد سمير وجهه المستاء . ولم يتكلم . ملأ نور الدين
الاحساس باستمئزاز . شاب فى الثامنة عشر . ذو ملامح جميلة .
لا يرتدى طربوشا يرتدى قميصا ذا ياقة مفتوحة وسترة رمادية
لا يرتديها سوى أبناء الطبقة الميسرة ، لا يتشبه بالنساء مثل أقرانه ،
فهو بعيد ان يكون احدهم . الرباط الذى يربطه بنور الدين هو
الكراهية العامة . فسمير يكره فى نور الدين المبادئ الاخلاقية التى
يعانى منها فى أسرته الكبيرة . ويبدو ضابط الشرطة الخير مجسدا
أما أبوه المدعى العام — هذا القاتل الشرس — فان نور الدين أول من
يكرهه . فهو يستغل منصبه فى اشباع ساديته وكلما قابل ابنه
نور الدين زاد احساسه بالكراهية .

منذ بضعة أشهر . هجر سمير الجامعة التى يدرس فيها
القانون . وقرر أن يدرس الحياة بعيدا عن الكتب . فى الشوارع
والأزقة .

لا يعرف نور الدين لماذا وافق الشباب ان يقابله . ظل الأمر
بالنسبة له سرا غامضا . حتى الآن لم ينجح فى ان يكسب ثقته .
فهو بالغ الذكاء ، يشعر أنه يسخر منه ، وانه لم يأت الا كى يثير
استفزازه . قال وهو يتصنع الغضب :

— معذرة . أعرف أن هذا المكان لا يليق بك . وأنا أيضا .
يمكننا أن نذهب الى شقتى وهناك نستطيع أن نتحدث .

— نتحدث . يا لها من مصيدة يا سيدى الضابط . هل
تتصورنى طفلا ؟

— أنت تهيننى يا سمير . ماذا تخشى ؟

رد الشاب وهو ينظر الى نور الدين بكراهية :

— لا أخشى شيئا . ولن أذهب الى منزلك .

علا الشحوب وجه نور الدين وقد صدمته النظرة الكارهة .
يحاول أن يفهم شيئا . لم يفكر أن يقابل هذا الشاب اللماح .
فى كل لحظة ينظر الى الباب خشية أن يدخل أحد معارفه . لا يمكن
لأحدهم أن يأنى هنا . انهما وحدهما بعيدين عن كل العالم .
يهربان من كل الأنظار . حتى صاحب المحل قد أدار لهما ظهره
واتشغل بطرد الذباب . أما أغلب زبائنه فيأكلون الحلوى وهم
واقفون فى الحارة يلفها البعض فى ورق جرائد . قوم صامتون .
يبدو كأن معجزة تدفعهم للحياة . أغلق نور الدين عينيه وكأنه
لا يصدق الواقع . وهو ينظر الى الشباب الذى يجلس أمامه ويتنهد .

ترك الحلوانى بعض الأطباق التى حطت عليها مجموعات
الذباب . حاول سмир أن يضطادها بلا جدوى . تعود للطيران مرة
أخرى . تحط على وجهه . دخلت احداها فى عينيه .

قال غاضبا :

- سوف يقتلنى هذا الذباب اللعين . هيا بنا .

- من فضلك ابعد لحظة .

- لماذا ؟

- الست سعيدا بصحبتى ؟

ابتسم سмир ساخرا :

- كيف . هذا من دواعى الشرف لى . لكن هناك شيئا

يضايقنى .

- ماذا ؟

- أود أن أقول انه لا يمكن لنا ان نتفاهم .

لم يجد نور الدين شيئا يرد به . يملؤه هذا الرد بالخوف .

يتمتع سмир بكبرياء غريب . يبدو مشدوها بنظرة سмир الكارهة .
انه صغير للغاية كى يحمل كل هذه الكراهية . هل سмир ثورى ؟
هل هو أحد الشباب الذين يحلمون بالهجوم على الحكومة ؟
وتراهم الشرطة حاقدين ؟ رفع نور الدين يده كأنما تذكر منصبه .
لكن هذا لم يدم طويلا . بدأ العرق يتصبب على جبينه .
وتخلصت ملامحه من الازلال . فهم فجأة انه لا يمكن أن يظلا صامتين
طويلا . يجب أن يقول شيئا أن يرتجل أى كلام :

- عزيزى سмир .

- أجل .

- أعدك . أن أصحبك فى المرة القادمة الى مكان فخم فى الحى

الأفرنجى .

- لقد أصبح سيدى الضابط أكثر تطورا .

- لكن هناك شيئا من الأفضل ان تفعله .

- ما هو ؟

- أن تغطى رأسك فليس من اللائق أن تسمى بلا طربوش .

- وعننى أقول لك أننى أرتدى ما يعجبنى . ثم اننى أمتلك

طربوشا .

- عدنى وسأقدم لك واحدا .

فكر نور الدين ان مثل هذا الشاب حين سيرتدى طربوشا

سيكون أكثر احتراما . تخيل ان سلوك سмир على بحويية الشباب .

- طربوش آه أنا أود سيارة . لماذا لا تقدم لى سيارة ؟

قال نور الدين : هذا فوق قدرتى .

- اهدأ فأنا أمزج • ماذا أفعل بسيارة • وحتى لا أخفي عليك سرا • فأبى النبيل يمتلك سيارة ولم أركبها قط • أود أن أموت • لماذا ؟

- لن أخبرك • فلن يمكنك أن تفهم •

من جديد ران الصمت بينهما • بينما تكاثر الذباب حولهما أكثر من ذي قبل • لم ينتهد نور الدين • فكر بسرعة أن الشباب بهذه الكلمات الأخيرة يبدو كأنه يدينه بتهمة عدم الفهم •

فكر أن يطرحه أرضا • يعنى هذا انه غير أهل للثقة • نوع من الإهانة • لا يمكن أن يتركه دون عقاب •

تنهد بعمق وهو ينظر مرة أخرى الى باب المحل • ثم قال مرتعشا كأنه يتحدث حول يوم القيامة :

كيف يمكنك أن تقول انى غير قادر على الفهم • انت تتحدثنى يا عزيزى سمير • أحب أن أعرف ماذا يهيك • وسأكون سعيدا أن أخفف عنك أحزانك • أتمنى الا تشك فى •

- انت لطيف يا عزيزى الضابط • وأنا لا أعانى من متاعب •

- اذن ماذا يجعلك كثير المرازة ؟ معذرة • أعتقد ان علاقتك بأبيك ليست على ما يرام •

- لا تكلمنى عن هذا الرجل • فأنا لا أحبه •

شعر نور الدين بأنه قد مس وتره • فهو لم يخدع • بكل ما يمكن أن يقرأه فى سمير • هو الكراهية •

- الى هذا الحد يا سمير • انت تدهشنى • كيف يمكن أن تكره أباك الى هذا الحد ؟

- هل تود أن تعرف ؟ حسنا • الأمر بالغ البساطة • لأن أبى من طرازك •

سأل نور الدين شاحبا : ماذا تعنى ؟

- لا • لا يتعلق بما تفكر • فأبى رجل يحب النساء • ويشبهك فى أشياء عديدة فى حقه •

- لا أفهم •

- قلت لك لن تفهم • لكن هذا ليس مهما بالنسبة لى •

انها أول مرة يتكلم عن أبيه الى شخص ما • وخاصة هذا الضابط • ليس هذا الحقد فقط ناحية أبيه ولكن لكل أبناء الطبقة الراقية • أليس نور الدين أحدها • مرتزقة يدافع عن هؤلاء القتلة • الأكثر شراسة من ثعابين الصحراء • لقد نما سمير بين اخوانه الكبار الذين ساروا فى ركاب شرف أبيهم • أما هو فلم يذهب الا قليلا أملا فى مستقبل أفضل وأسهل • ألم يود أن يكون محاميا مشهورا ؟ انه يشعر بالغيرة فى هذا الوسط المنحط • القدر • ولم تستمر رغبته أن يصبح رجلا مرموقا سوى فترة قصيرة • فقد استيقظ يوما وشعر بالغثيان •

شعر بازدراء لا نهاية له تجاه نفسه • ولكن أليس هذا الازدراء موقفا سلبييا لم يقده الى شىء • فالألم الذى يشعر به ينزلق من شيا به محاطا بهذا العفن الأبدى • يزيد من كراهيته • فهو يرى أن عليه أن يحيا حياة الرجال • لأن أمامه مهمة عظيمة •

لقد حانت اللحظة كى يتصرف • يتردد أحيانا فى اختيار ضحيته الأولى • فبمن سيبدأ ؟

- أعتقد اننى سوف أقتله يوما •

- من ؟

- أبى أتعرف ان هذا يسليتنى كثيرا . قل لى سيدى الضابط :
هل يمكنك أن تفعل ذلك لأجل خاطرى ؟

أخفض نور الدين رأسه . وبدأ قلبه يدق . قال متنهيدا :
- أريد

- يا الهى . لقد فقدت عقلك .

- بدأت أفكار ما تشع فى رأسه . يبدو كأنه ينزلق فى بئر عميق . يصرخ أحيانا طفل فى الخارج بصوت قبيح . ينبج ككلب بصوت خائر . تمر عربة ترام فى الممر وهى تطلق رنيناً أشبه بصفارة الانذار . كل هذه الأصوات تنخر فيه كأنها ضباب قادم من عالم غريب بعيد يرفع رأسه كأنه يفرق . ثم شدد ياقته وثبت ناظره على حائط الحانوت فى ركن علق عليه لوحة تصور حفل زفاف شعبى . يقف العريس محاطا بصديقين يحملان باقتين من الزهور ، ويقف الموسيقيون فى زيههم الرسمى . ومن الخلف يتكدى المدعوون . لقد بهتت ألوان الصورة . لكن خط الرسم لا يزال يحتفظ بعفويته .

رمى الشاب نور الدين وقال وهو يبتسم :

- هل وصلت العبقريّة الى هذا الحد ؟

- ماذا تقصد ؟

- يجب ان تتزوج يا سيدى الضابط .

نظر الضابط اليه بحدة . وهو يفكر انه لا يمكن أن يحدث مقاطعة سمير . لكن ليس عليه ان يصل الى هذا الحد . عليه أن يهرب من هذا المكان الملعون . يشعر أن الكل بأمر ضده . عليه أن يكون شجاعا ويسأله :

- الآن تأت لتناول العشاء معى اليوم ؟

رد سمير : لا .

- الا تود رؤيتى ؟

- اذا كان الأمر يتعلق برؤيتك فلنتناول العشاء فى مطعم .

ضحك سمير ، نظر الحلوانى وقد ملأت الدهشة عينيه . هنا دخل اثنان أو ثلاثة من الزبائن الى المحل . انها فضيحة . وذلك ما يخشاه نور الدين .

- اهدأ . من فضلك . فأنا لا أبغى فضائح .

قال سمير : لست موافقا .

احتج نور الدين : اعتقد أن هناك سوء فهم فيما بيننا .

قام - عدل طربوشه . وبدأ أكثر جدية :

- معذرة . أنا مضطر للذهاب . فوظيفتى تنادينى . سأراك مرة أخرى . تحياتى . بمنتهى الكبرياء . وبينما ترتعد أهدابه أمام الحلوانى الذى بدا مبهورا . ثم خرج من المحل انه يسرع الآن ، اخترق الحارات المليئة بالاكشاك المصنوعة من الحشب والصفيج . سلك طريقه . فى هذا الحى لا يثير زيه كضابط شرطة مشاعر أحد . فكى يخشى شخص رجال الشرطة عليه أن يكون لديه شئ يخاف فقده . وهنا لا أحد يملك شيئا . فالفقر فى كل مكان . انه المكان الوحيد فى أنحاء البسيطة الذى لا يمكن للسلطة أن تكون محترمة . يعرف نور الدين طبائع سكان هذه المنطقة . يعرف أنه لا يمكن لأحد ان يخرجهم من نومهم الأبدى . لا يحملون حقدا فى قلوبهم . ولا كراهية . فقط هناك احتقار خفى تجاه القوة التى يمثلها . يقال انهم يجهلون ان هناك حكومة وشرطة . أو حضارة متقدمة . هذه الأرواح التى تجرح نور الدين فى أعماقه . وتكشف

له عن مدى ضعف قوته . لا يمكن ان يمنع تعصبهم ورفضهم .
 كأننا الامر اهانة شخصية يشعر في كل خطوة انهم يخفون .
 وجوههم . يتنهد كأنه فريسة . ويشعر انه من الغباء ان يجرى . ابطأ
 خطاه . هؤلاء الصبية يثيرون الخوف في قلبه . ويحطمون أعصابه .
 قرر ان يسير على مهل . وأن ينظر أمامه . كأنه رجل يفكر في
 خطة سينفذها ، لكن هذا السلوك الذي تصور كبريائه قد خيب
 ظنه . فبينما ينظر يمينه ، سار فوق بركة مياه . فانزلق وسقط
 أرضا . استند على كشك وهو يفحص حذاءه وأسفل بنطلونه الذي
 امتلاء بالوحل أحس بالحجل وأنه فقد كبريائه . لم يتحرك لحظة .
 لا يجرؤ أن يرفع رأسه ، أى مشهد مضحك قدمه لهؤلاء المتفرجين .
 تسلط عليه غضب وهو يلعن بصوت خفيض . اعتدل . انتظر أن
 يضحكوا . لكن أحدا لم يضحك . ربما أن هذا من لون السخرية
 طرفهم . تذكر احتداد سمير . انه لا يقارن بهذه النظرات التي
 تركز عليه كأنها تنزع عنه وقاره وتعريه من الزى الذي يكسبه
 أهمية . يمكنه ان يدافع عن نفسه ضد حقد سمير . وضد كبريائه .
 ولكنه لا يعرف كيف يرد على هذه النظرات المليئة بالقسوة والحقد .
 لا يبدو - فيهم - شئ يدل على التمرد وانكراهية . ينظرون اليه كأنه
 مخلوق غريب . لماذا لا يقدفونه بالحجارة ؟ انتظر منهم بادرة . لكن
 أحدا لم يتحرك . دائما هذا السكون والغموض . تقف الآن وسط
 الحارة فتاة في السادسة من عمرها . ترفع طرف ثوبها . ادار لها
 رأسه وأسرع .

تساءل عن معنى هذا المشهد الهذيانى ، بدت له حركة الفتاة
 كأنها تنتمى الى عالم وحشى انه مشهد خيالى . أخرجه من الركام
 والعفونة : ملعون أنا . هل حكم على ان أعيش بقية حياتى وسط
 هؤلاء الرعاع . . . شعر بمرارة تسد حلقه وهو يفكر فى الدور الذى
 سيلعبه . أية عدالة ساقته هنا . هذا المكان الميت . عليه أن يسجنهم

جميعا . ظل نور الدين يتوهم . يعرف انهم أكثر قوة . فقد مر
 معهم بتجارب سابقة . يرفضون أن يسامحوا فى بناء الحضارة .
 ولا توجد قوة يمكن أن تجبرهم على ذلك .

تذكر أنه يسرع الآن كى يحقق فى جريمة . ضحك ساخرا .
 هذه الجريمة التى تتعلق بمقتل عاهرة شابة قد سببت له الكثير من
 الضغوط . لقد تصورها جريمة بسيطة . وعليه أن يوكل بمهمة
 أكثر أهمية . لكن عليه أيضا ان يعثر على هذا القاتل الذى ينتمى
 الى طبقة راقية .

تنهد . لقد خرج أخيرا من هذا السعير . ليست هذه حضارة
 وشئ يمكنه احتمالها ها هو فى شارع . شارع حقيقى به سيارات
 وترام . ملئ بالناس الذين يحسون انهم أحياء . يملأون شرفات
 المقاهى . يتحدثون وهم يشعرون بالتفاؤل . كأنهم لا يشكون
 من شئ . وكأنها الحياة نكتة جميلة . من جديد أحس نور الدين
 بالمرارة . لماذا يكون هو الوحيد الذى يرى الرعب ؟ فهؤلاء يعيشون
 كأنهم فى عيد . يريدون أن يعوا مبادئ عالم يعيش فى أسى .
 بينما لا يعرفون أى نوع من القهر .

كان الرد سهلا للغاية فهؤلاء القوم لا يخشون شيئا لأن ليس
 لديهم ما يخشون ، لكن نور الدين رفض أن يقتنع بهذه الفكرة .
 فهنا اثبات أكيد للفوضوية رأى مخبرا يجلس على شرفة مقهى .
 اتجه نحوه . قام المخبر من مقعده :

— تحياتى لسعادتك .

— انه فى الأربعين من عمره . يرتدى معطفا أسود . وحذاء
 طويلا ذا أزوار صفراء لف شالا فوق رقبته النعيفة . وقد تدلى
 طرفاه كأنما جناحا غراب . انه أعور . لكن عينه تساوى ثقلها
 ذهباً . فقد فقدتها فى إحدى المعارك . سأل نور الدين :

— هل نجحت في العثور عليه ؟

— يجب أن أقر أن هذا عمل صعب . ومع ذلك استطعت أن
أرصده . فابن العاهرة يغير مكانه كل ساعتين تقريبا .

قال نور الدين متعصبا :

— وأين هو الآن ؟

— في رقم ١٧ في هذا الشارع .

— انه فندق . ما اسمه ؟

— لا أعرف . يسكن في الطابق الأول . الغرفة أمام السلام .

— يمكنك أن تذهب . لست في حاجة اليك .

— تحت أمرك يا سعادة البيك .

ترك نور الدين الشرطي الأعور وعبر الطريق . سار ببطء
فوق الرصيف بجوار البيوت التي تحمل أرقاما فردية . وعلى بعد
خطوات وقف أمام رقم ١٧ . تأمل الواجهة لحظة . يتطلع إليها من
الشمال الى اليمين كأنه يخشى أن يراه أحد يدخل هذا الفندق
المتواضع . فتح الباب ودخل الممر المظلم . لم يأت عامل الفندق
لملاقاته بدا كأنه خاو منذ سنوات . صعد نور الدين السلم تدفعه
غريزته . الى أن وصل الطابق الأول . رأى في الظلام بابا فبدأ
يطرق عليه بكامل قبضته .

لم يرد أحد على طرقاته العصبية . أصاح نور الدين السمع .
لم يتحرك أحد في الداخل . ودون أن ينتظر ادار قبضته . وفتح
الباب . ثم دخل الغرفة التي لم يكن بها ضوء كاف . يسود
الظلام عدا شعاع من الضوء يتسرب من النافذة المغلقة الانطباع
الأول الذي أحسه نور الدين أن الغرفة خاوية . وشيئا فشيئا

بدأت عيناه تعتادان الظلام . استطاع ان يرى السرير الذي تمدد
فوقه جسد آدمي متدثر بغطاء .

— هيه استيقظ .

لم يتحرك الجسد المتمد تحت الغطاء كأنه جثة . بدأ نور
الدين يحس بالعصبية وهو يعتقد ان الرجل قد مات . اقترب من
السرير بحذر ورفع الغطاء فرأى الرجل عاريا . ويدق قلبه من
الخوف هلعا .

همس نور الدين :

— ليحفظنا الله .

هنا شعر ان زلزالا أصاب النائم .

استيقظ وهو يدعك عينيه ويتثأب . سألته :

— من أنت ؟

صرخ نور الدين وهو يود ان يحطم كل مقاومة الرجل النائم :

— شرطة .

لكن هذه الكلمة بالغة الأهمية لشاغل السرير . فهو يود أن
يعود ثانية للنوم :

— يمكنك ان تبحث في مكان آخر . فليست هناك قطعة
حشيش واحدة معي .

قال نور الدين : ليس الأمر كما تتصور . قم أريد أن أكلّمك .

هتف يحيى وقد استيقظ :

— تكلمني . ياآلهي . سيدى الضابط هذا من دواعي شرفي :
هل أفيدك في شيء .

- جئت اليك فيما يتعلق بجريمة قتل .

- قتل ؟! يا نهار اسود .

- نهار اسود عليك .

أزاح يحيى الغطاء كاملا . وجلس على السرير . وقد ثنى ساقيه . بدا وجهه بارز العظام شارد النظرات . أشبه بفقرء الهنود أنحله الصوم والتقصيف . كرر :

- قتل . ماذا فعلت لأقتل ؟

- سأخبرك . لكن رد على أولا : هل تعرف ان بنتا من بنات منزل الست أمينة قد خنقت منذ عدة أيام .

قال يحيى : لقد عرفت ذلك

- يبدو انك مألوف بالنسبة للمنزل .

- فعلا .

- اذن تعرف أرثية .

- بالطبع . فهي أجملهن .

- حسنا . فنحن متفقان . يمكنك أن تخبرني أين كنت ساعة الجريمة ؟

لم يترك ليحيى وقتا ليفكر . لم يسأل أين كان ساعة الجريمة وانقا أنه لن يخدعه . رد بطريقة عفوية :

- كنت نائما يا سعادة البك .

- أين كنت تنام ؟

- لا أعرف . فأنا أنام في كل مكان .

- هيا يابن الكلب ؟ الا تعرف شيئا عن هذه الحكاية ؟

- أبدا . بشرفي . لا أعرف شيئا . يمكنني أن اعطيك بعض المعلومات عن تناول المخدرات لكن جريمة قتل . فهذا ليس من شأني .

- دعني أخبرك أنك المشبوه رقم واحد .

- كنت نائما . كيف يمكن لضابط ذكي مثل سعادتك أن يقترب خطأ هكذا ؟

زمر نور الدين : دعك من هذه السخافات . سأخبرك على الكلام .

وضع في حسبانته انه اكتشف السبب . في أحد هذه الأماكن التي يتم فيها استجوابه . ورغم التهديد الذي يحيطه . يتنفس رائحة الغرفة القذرة . القى نظرة نحو النافذة المغلقة . ود أن يفتحها . لكنه خاف ان يدخل ضوء النهار . فالظلام يساعده . ويمنع أن يلحظ يحيى ارتياكه . من الشارع صعدت أصوات العربات . صياح الخوذية وأجراس الترام أعطته هذه المسيرة البطيئة قوة الارادة . سار بضع خطوات باحثا عن قطعة أثاث يستند اليها . جلس على طرف مائدة . سوف تفشل هذه الزبارة اذا لم يغير خطته . فالصعوبة بالنسبة لاستجواب يحيى انه شاب يسخر من كل شيء درس القانون ويتعاطى المخدر . وله علاقات عامة ويعرف الكثير من مساوي الأحياء الشعبية . لم يصدق نور الدين حدسه . لقد حاول ان يجد دليلا يقوده الى القاتل الحقيقي . يعرف ان هذا المائل أمامه لا يمكن ان يمارس العنف . ولا يأخذه بجدية . يتعاطى المخدرات . لكنه لا يستطيع أن يقتل ولأن نور الدين يجهل الرذيلة التي من الصعب ان توجد في شخص جبان كهذا .

فهل يسمح له هذا أن يأخذ الحياة بهذا الهزل ؟ كما ان هناك بشرا لا يهتمون بالفقر كثيرا .

من جديد أحس بالمرارة تغزوه . ونظر الى يحيى . لا يمكنه أن يمنع أن يجد فى هذا المشهد ما يثير الرثاء . يبدو هذا الرجل عبثيا وضد الطبيعة وتتناثر السخرية فى كل مكان . قال نور الدين :

- لقد انغمست فى قصة قدرة .

- معذرة يا سعادة البك . ولكن الدنيا أصبحت أكثر تسلية .
اليس كذلك ؟

- ما الذى جعلك متفائلا هكذا ؟

قال يحيى : القنبلة .

- أى قنبلة ؟

- ألم تسمعهم يتحدثون عن القنبلة يا سيسى . هذا يدهشنى . انها شئ يعرفه كل الأطفال . لقد اخترعوا قنبلة قادرة على تدمير مدينة بأكملها . الا تجد هذا مسليا ؟

وماذا عليك ان تفعل ؟ بقى نور الدين صامتا لحظة . محاولا أن يفهم . فهذا الاستجواب سيكون الجنون بعينه .

- دعنا من هذه القنبلة الملعونة . فلن يغير من موقفك شيئا .

- اذا فكرت سعادتك فى خطر القنبلة قليلا . فماذا يمكن ان يخشى المرء ؟

أصبح الموقف غير محتمل . توقفت ضجة الشارع فجأة كأنما توقفت الحياة للأبد . شعر نور الدين فجأة أنه سيتقيأ وسيفرغ كل ما بمعدته . سأل يحيى :

- هل أنت مريض ؟ آسف لما قلت . انت تعرف حكاية

القنبلة . انها نكتة . من الصعب صناعتها كى يلقوها فوق هذا المكان . فهي غالية الثمن . صدقنى .

- اسكت أيها القذر . ارتد ملابسك . فسوف نخرج .

قال يحيى متوسلا : فى مثل هذه الساعة رحماك يا سعادة البك . ماذا فعلت لك ؟

- ارتد ملابسك يا ابن الكلب .

- تحت أمرك يا سعادة البك . لكن لا تدفعنى .

قفز يحيى من سريره وبحث عن ملابسه التى القاهها فوق المقعد . ارتدى الملابس بكل حيوية . ثم فتح باب الغرفة . خرج نور الدين من الغرفة يتبعه يحيى وصلاح الى الشارع . تبادلا النظرات لحظة كأنهما يتعارفان بدا يحيى مبتهجا :

- هل يمكن أن أدعوك لتناول فنجان قهوة . يا سعادة البك ؟

أمسك نور الدين يحيى من ذراعه ثم سحبه بسرعة وهو ينطق من بين أسنانه :

- سوف أجعلك تقدمها لى فى السجن .

أضىء وجه جوهر من ضوء الشمعة المرتجفة كاشفا عن المتعة
التي يحسها • يجلس فوق المقعد الوحيد في حجرته ، وقد وضع
يديه فوق جبهته • وأسند رأسه ناحية الباب الذي يفصله عن
الجار • لقد مر كل ما يامله • تملكته الدهشة وعت روحه انه
الشاعد الوحيد لتصرف شاذ • تستبد به المتعة منذ فترة طويلة ،
استعاد جوهر - وهو يغلق عينيه - كل أوجه حياته • يتبادل
بعض الناس الكلمات على الجانب الآخر من المائط فيطرقون في رأسه
كأن شعلة تضيء ظلمات وعيه •

لقد شغلت الحجرة المجاورة منذ أيام بمستأجرين جد • انهما
زوجان • الرجل قعيد (١) اتخذ من الشحاذة مهنة أما زوجته فامرأة
فضولية قوية البدن • كأنها عمارة من عشرة أدوار • تذهب في كل
صباح لتضع زوجها فوق رصيف أحد الأحياء الأفرنجية ثم تعود

(١) الترجمة الأصلية تعنى رجلا بلا ساقين أو ذراعين •

لتأخذه عندما يحل الليل • كى تعيده الى الدار • قد يقابلها جوهر مرة على السلم • فيرى المرأة تحمل زوجها القعيد على كتفها كأنه انا • كبير ترد على تحية جوهر بصوت أجش قادر أن يجمد الدم في العروق للشخص لديه شجاعة كافية • تبدو شرسة متعجرفة • هو اقرب الى رجل من امرأة •

لم يصدق جوهر أذنيه • ارفعها أكثر • وجد أنه من الصعب أن يتخيل الأمر الذى يدور فى الغرفة المجاورة • فالمرأة تقوم بدور الغيرة الأبدى بالنسبة لزوجها القعيد • سمع جوهر القعيد يدافع عن نفسه بحرارة • ضد اتهامات زوجته ويلقى عليها الاتهامات انها ساحرة تأكل الجثث • ثم بدأ يتأوه طالبا الطعام • لكن المرأة ظلت صامدة أمام تداءات بطنه • واستمرت فى اهانتته وكيل السباب له •

بلغ اعجاب جوهر مداه • لم يصدق أن هناك شيئا يمكن أن يثير دهشته • الغيرة من رجل قعيد ، حقا فان جنون النساء لا حدود له • فجوهر يعرف النساء وغبائهن الأكبر وما يسببهن فى العلاقات الانسانية • قادرات على أداء مشاهد الغيرة لحمار • حتى لو كان السبب غير مهم • بدأ يحس فى جيرانه بأشياء تسترعى الانتباه • فهذا المشهد العائلى رغم أنه غير محتمل - يفتح له بابا حول الطبائع الانسانية يا لهما من جيران • دعك يديه • وهو يبارك المصادفة العجيبة التى جاءت له • دون أن يترك غرفته • الى هذا الثنائى الغامض • الذى يعلو على كل ما يتمتع الشر من سخرية الرجل فى كل مكان • وهو شيء عالمى ولكنه تخلف عقلى أكثر من أى شيء آخر ويمكن عمله دون أى جهد • أحس جوهر بدناءة عمله • منذ سنوات طويلة • وهو يعيش على نفس الوتيرة وتلزمه فترة طويلة كى يمكن أن يحكم على تجربته : انه أثر بعد عين لقد قام بتعليم الطلبة طوال عشرين عاما كل الفلسفات الكاذبة المعبقة بالغبار • كيف أمكنه أن يأخذ الأمور بجديّة • ألم يكن يفهم ما يقرأه ألم تبد له هذه

المحاضرات مليئة بالسفسطة ؟ كان الحوار غير مناسب • حاول أن يضع كل شيء فى مكانه • كل نصوص التاريخ القديم والحديث التى آل على نفسه أن يعلمها لتلاميذه مليئة بالآلاف الكذبات • يمكنه أن يكذب فى التاريخ • لكن الجغرافيا • كيف يمكن أن يكذب فى الجغرافيا • حسنا لقد توصلوا الى معرفة أسباب الزلازل • لكن المنهج يتغير فى كل عام • ويدمّش جوهر أنه لم يحذر تلاميذه يوما من هذه الكذبات كأن كل شيء يدور فى داخله • فقد اقتنع هو نفسه ان هذه الكذبات الرسمية يمكن ان تغدو حقيقة •

لا يمكن لكل هذه الكذبات سوى ان تبطل الحياة • وتكون النتيجة عذابا بمقاييس البشر يعرف جوهر ان هذا العذاب ليس جوهرًا ميتافيزيقيا • يعرف أنه ليس مصيرا محتوما لكل البشر ولكنه ينبع من رغبة مكبلة • رغبة قوى قد تبدو واضحة وبسيطة • أما العذاب فهو يفرق فى غياحب الظلمات والفوضى • وهكذا تتضح معالم عبثية الحياة • وتحت اسم العبث يمكن أن تقترب كل الجرائم فالدنيا ليست عبثا • وان كانت مثيرة للرثاء • فهى مليئة بأسباب العنف • وعلى كبار المفسرين أن يفسروا العالم للملحددين • ليس عليهم أن يقدموا الظواهر بدون تفسير • يخافون من البدهيات •

عن ناحية أخرى فانهم يخاطرون بتفسير الأشياء بأسلوب بسيط وموضوعى • قام بعض الغاضبين السابقين بتفسير شريف ومنطقى لبعض الظواهر • وقد وجدت هذه الأشياء تأثيرها على الأجيال • ولكن لا يوجد الشجاع الذى يمكنه أن يعبر عن أفكاره بوضوح • لقد أصبح كبت الفكر هو الأسلوب الوحيد لانقاذ الانسان من سيطرة الطفيلان •

ليس هذا هو السبب الذى دفع جوهر الى اعتناق أفكار غاضبة • لم يترك الجامعة التى كان يقوم بالتدريس فيها • أو شقيقه فى الحي

الافرنجى الا بحثا عن جذور جديدة للمعرفة . لم يكن يؤمن انه مصلح او نبى . بل يهرب من العذاب الذى يخنقه كل يوم . هذا العذاب الذى يفرق فى داخله أين هي الآن انه هنا تتصارع تياراته أمام ساحل جزيرة صغيرة أوى إليها جوهر . يتساءل كم من الوقت سيظل الحى الشعبى يقاوم الأنفاس المسمومة ، بلاشك سنوات ، ربما قرن ، يا له من حظ يجعله يعيش فى عالم يتلذذ بالقتل . توصل جوهر الى هذه المقولة الهامة : ليس للقوة الدائمة أى تأثير على الأشخاص الذين لا يقرأون الصحف . فالعذاب لا يمكن ان يمس هؤلاء الناس . ويبقى الحى الشعبى هو المكان الوحيد البعيد عن العنف . يمكنه ان يعيش فيه حياة صحيحة تحركها الدوافع البسيطة أما أى مكان آخر فيبقى جنونا . ثم ان هناك عدوى أخرى الاذاعة : باختراع المذياع يمثل بالنسبة لجوهر أكبر اعلان عن الشيطان . هذا الصندوق الصغير الذى يراه فى كل مكان يبدو أكثر احداثا للضجيج من كل المتفجرات مجتمعة .

مر وقت طويل أحس بعده أن الصمت قد علا الغرفة المجاورة . أصاخ السمع محاولا أن يسمع صوتها . يود أن يعرف كيف انتهت الأمور . على كل فهو شيء يبدو مرضيا . فالذى يحدث فى الغرفة المجاورة أكثر تهديبا من كل ما تعلمه سنوات طويلة فمشهد الغيرة هذا يعلن حقيقة هامة . بدائية الانسان . فرغم كل العجز الذى أصاب القعيد . لكن لا تزال القوى الحسية ماثلة فيه . ليس لأنه رجل يبحث عن الجنس ولكن لأنه يأمل - مثل كل الناس - أن يكون مركز الكون . كاد ضوء الشمعة ان يخبو . ثم بدأ يتحرك ويرتجف . كاشفا عن خواء الغرفة رمش جوهر بعينه وهو يتطلع حوله كأنه استيقظ من النوم لتوه . معجبا بفقر مسكنه . لا يوجد أى أثاث عدا أوراق الصحف التى يستخدمها كحاشية : كومة من الأوراق المكسدة المبللة لم يفكر أن يضع أوراقا أخرى مكانها .

سوف يطلب بعضها من الكردي . الوحيد الذى يشتري الصحف ممن يعرفهم .

غريب ان يقوم بتنظيم المكان الذى سينام عليه كأن شيئا لم يتغير . كأنه لم يقتل هذه العاهرة الصغيرة . هل غير هذا فى الأمر شيئا فالأمر لا يعدو حدثا . تسأل عما يمكن ان يحدث له وعما اذا كان ما اقترفه قد ارتكبه فى زمن بعيد حين كان يعيش عيشة الأشراف والموقرين . بالتأكيد كان سيعد نفسه وحشا ولا يستطيع أن ينام من الندم . أما الآن فلا أهمية لشيء . ليس هذا تقدما ملحوظا ؟ لقد قطعت هذه الجريمة كل الأواصر التى تربطه بماضيه الكاذب . خلاص حقيقى . لم يستبعد متاعب الضمير . لكنه يؤمن أن كل ما حدث ليس سوى تجربة .

بدأ القعيد يتأوه من جديد ، أعلن عن جوعه وهو يكاد يبكى . لكنه لم يسمع صوت المرأة . ماذا تفعل ؟ تخيلها جوهر تاكل أمام جوهر الذى لا حول له ولا قوة .

سعل ، سمع طرقا على باب الحجرة :

- من ؟

- أنا يا سيدى .

انه صوت يحيى الذى يبدو بهتجا خلف الباب .

- ادخل يا بنى : أهلا وسهلا .

فتح يحيى الباب . أدخل رأسه أولا . ثم جسده مستديرا حول نفسه فى حركة بارعة متقدما نحو جوهر . حياه منحنيا . ثم فرد قامته وانحنى مرتين أو ثلاثا وكأنه تحت أمره . هناك شيء ما فى هذه التحية التى يطلقها هذا الصعلوك البسيط أحسن أن

يحيى يكن له فعلا الكثير من الاحترام والمحبة . لكن احترامات يحيى
تبعث دائما على تسليته وقد اعتاد عليها .

قال يحيى عندما لم يأمره جوهر :

- أرجو الا أزعجك يا سيدى .

- أبدا . هذا يسعدنى . اجلس .

اراد جوهر أن يقوم ويترك له المقعد . عارض جوهر بشدة .
وكانه يخشى ازعاج أستاذه :

- أبدا . هذا يسعدنى . اجلس .

- أبدا . أنا فى خدمتك . سأجلس أرضا .

تراجع نحو الحائط وهو يرقب جوهر بعينه . ثم جلس
أرضا . وقد عقد ساقيه حول بعضهما تبدو طريقته غريبة . وكان
هناك سببا لهذا . يبدو جوهر وقد أصبح فجأة شخصا أسطوريا
معنا عن أمور أخرى تبدى حبه البسيط .

- لعلك تسأل ما الذى أتى به يا سيدى .

رد جوهر : لعلها الرغبة فى رؤيتى .

- بالطبع . لكن هناك شيئا آخر .

- ليحفظنا الله . خيرا .

تخلى يحيى عن مظهره . وضجك ساخرا :

- تملكتنى قوى الجحيم يا سيدى : زارنى اليوم ضابط شرطة .
لا أعرف كيف عرف مكانى . كنت أقيم فى هذا الفندق .

قال جوهر : أعنقد انه لم يجد شيئا طالما انك هناك .

- لا يتعلق الأمر بالمخدرات . اعتقدت أيضا انه جاء لنفس

السبب . ولكن لا ، فقد ابلغنى انه يبحث عن قاتل . باحتصار
يشبه اننى قاتل الفتاة أرنية . ووجه لى هذه التهمة .

لم تبد عن جوهر أية حركة . ليس فى حاجة أن يكشف
ما يضره . فالشرطة تقوم بواجبها مسألة اجراءات ولا يهمه هذا
فى شئ .

- لماذا يشتبهون فيك يا ولدى ؟

- يقولون ان القاتل من رواد الماخور . ولأنهم يعرفوننى .
فقد قبضوا على . لأننى صاحب سوابق اعتقدوا انهم وجدوا ضالتهم .
لكن للأسف . ليس لديهم دليل ضدى .

- ماذا قال ضابط الشرطة ؟

أسعد هذا السؤال المنتظر يحيى :

- حاول استقرازى . لكننى سخرت منه .

- سخرت منه ؟

- طبعاً يا سيدى ، توعدننى بأشد العقاب وكى ارد على تهديده
حدثته عن القنبلة .

- أى قنبلة يا صغيرى ؟

- القنبلة يا سيدى ، انت تعرفها جيدا تلك التى يمكن أن
تدمر مدينة .

ترك جوهر يحيى يتكلم عن تفاصيل مقابله بضابط الشرطة .
وكان ما حدث شئ عجيب . لكنه الآن لم يعد يفهم . هل وقع
صديقه تحت تأثير المخدر ؟ لم يستطع أن يربط بين تهديد الضابط
ورد يحيى . هل يلعب يحيى دورا ما . ليس هذا مستحيلا .

- كلمنى يا بنى . عن دور هذه القنبلة فى الأمر .

- الامر بسيط يا سيدى • حاولت أن أجعله يفهم خطر القنبلة المدمر •

ولم يكن هذا كل شيء •

فقد سميت هذه الحكاية شغافه وبدا شاحباً • أصابه الخوف بالمرض وأصبحت رؤيته مضحكة • أشققت عليه أخيراً • أكدت له انها قنبلة تكلف غالياً وانهم لن يخطروا بالقائها هنا •

هز جوهر رأسه بكثير من السداجة •

- أنت مخدوع يا بنى • سوف يلقونها على اياهم • فهؤلاء الأقدار لا يحترمون أحدا •

- أعتقد هذا يا سيدى ؟

- انه الشيء الوحيد الذى أؤمن فيه •

- انهم مجانين •

- لا ، لا تحاول تهوين الأمر • فليسوا مجانين ، بل على العكس • فهم فى منتهى الوعي • وهذا يجعل الأمر أكثر خطورة •

وبدا يحيى مندهشاً • كيف أمكن أن يبدى هذه الخيالات • كيف يصدق سداجة أن القنبلة هى سبب كل المأسى • لم يخدع جوهر أبداً فى محاكمة أولاد العاهرة الذين اخترعوا القنبلة •

- حدثنى يا سيدى • هل هناك فرصة أن تنفجر بين أيديهم • هذه القنبلة القذرة •

- لا أعتقد • انهم بالغور الحرس • والانتباه حتى لا يحدث هذا الهم •

قال يحيى خائباً : خسارة • وددت أن تنفجر بين أيديهم وهم يستعدون لتفجيرها • سيكون هذا أكبر نكتة فى القرن العشرين • أحب أن أفرح يا سيدى •

- كفالك مزاحاً • يبدو هذا القرن كأنه قد تجاوز كل القرون الأخرى فى أمور الفاشية •

- انت على حق • فلا تخش شيئاً •

سكت يحيى • لم ينسه هذا الحديث عن القنبلة وآثارها التدميرية الخطر الأخطر مثولاً من القنبلة • لم تخمد نظرات جوهر كأنه يخشى أن يراه متخفياً • جالسا فوق مقعده وقد كشف نور الشمعة عن وجهه • الغرفة خاوية يبدو جوهر مندهشاً تماماً • لكن يحيى لا يمكن أن يقدر مدى هذه الحسارة فالحب الذى يكنه لجوهر أهم شيء فى حياته • يجب أن يضع نفسه تحت خدمته من أجل انقاذه • وهذا هو المهم •

سمع فجأة حواراً يدور فى الجانب الآخر من الحائط • يتوسل القعيد أن تعطيه شيئاً يأكله بدا أضعف ما يكون • تبدو تأوهاتة أشبه ببيكاء طفل حديث الولادة •

سأل يحيى : ما هذا ؟

قال جوهر : جيران جدد • الرجل قعيد • أما المرأة فأشبهه بالحائط • تحمله كل يوم فوق كتفها وتضعه فى مكان من الحى الأفرنجى كى يتسول • وتعود لتأخذه فى المساء •

وهو الآن يشكرها على هذا الصنيع فبدونها لا يستطيع شيئاً •

- هل يتأوه بهذه الطريقة ؟

- أجل يطلب طعاماً •

- لماذا لا تعطيه شيئاً يأكله •

- لو قلت لك يا عزيزى يحيى : فلن تصدق • انها تغير عليه ؟ وفى هذه الساعة تعاقبه •

- مستحيل . غيرة لقعيد . لماذا . هل يخونها ؟

- كل شيء ممكن يا بنى . أما كيف عرفت انه يخونها فلا أعرف . يجب أن ننتظر كل شيء من النساء . حتى مع قعيد . المهم ان يستطيع ممارسة الحب .

- لا أصدق . على كل حال فهي تنتقم بطريقة نبيلة . تتركه يتضور جوعا : قل لى الا يمكن أن تفعل شيئا من أجله . لا يمكن ان تتركه يا سيدى . أود أن أكسر فك هذه المرأة .

- ليحفظك الله يا بنى ! انت لا تعرف هذه المرأة انها شرطى حقيقى . أقوى منك بعشر مرات لن تنال منك سوى بلكمة .

أثار هذا الوصف للقعيد الهادى بعضا من نخوة يحيى .

ظلا صامتتين لحظة . بينما يتألم القعيد يتوسل . مما ترك أثرا فى يحيى . وأحس بالجوع هو أيضا .

- حقا يا سيدى . الا تعتقد انه لا يمكننا أن نفعل شيئا له ؟

- لا . فهذا لن يحل المشكلة . سوف تعطيه ما يأكله . الا ترى أن رجلا كهذا أشبه بمنجم ذهب ، ما احساسك اذا غارت عليك امرأة ؟

- أعتقد ان أى امرأة لا يمكن أن تغير على . ومع ذلك أشعر بالوسوسة فى كل أعضائى . حتى لو كان الأمر خطأ .

- سوف ترى أنك ترغب مثل هذا الرجل .

ساد الصمت . بينما غرق يحيى فى دهشة . هل يهتم جوهر بهذه الأمور العائلية الى هذا الحد يبدو غريبا . وكان خطرا يحيى به . يتابع فرحا وقائع المغامرة الدامية منذ أن دخل حجرته .

ينتظر يحيى أن يصرح له جوهر باعترافه عن جريمته . لكن شيئا لم يحدث لماذا ؟ ألا يعتبره الانسان الذى يمكن أن يبوح له بكل شيء . فهذا الأمر يجعله غامضا يغوص فى شك غريب . هل خدع ؟ وإذا لم يكن جوهر القاتل ؟ فان شكه قد نما بعد الظهر حين مشى مع الضابط فى الشوارع الشعبية ، لم يسمع سوى تهديدات الضابط بينما انشغل يحيى بتحية عن يعرفونه . عندما تذكر أمرا عاما . لقد قدم له جوهر العزاء فى موت أمه . وهو لم يحدث أحدا عن موت أمه سوى أرنبة . العاهرة . ثم قتلها . اذن فجوهر آخر شخص رآها على قيد الحياة .

ومع هذا فهو يتألم حين يفكر أن جوهر قاتل . تردد لحظة . ليس أمامه وقت يضيعه . يعرف أساليب الشرطة جيدا . ولا يمكن لجوهر أن يدافع عن نفسه اذا وقع تحت استجواب قاس . ومن ناحية أخرى . هل يرغب فى الدفاع عن نفسه ؟

- فى الواقع يا سيدى . جئت لأخبرك أن تكون حذرا .

- مم يا بنى ؟

قال يحيى : هناك خطر كبير يكمن هنا .

قال جوهر : ليس الخطر كبيرا كما تعتقد .

لم يحاول أن يفكر . ولم يسأل كيف اكتشف يحيى أنه القاتل . قال بعد لحظة :

- لقد عرفت اذن .

- سيدى . لا أفهم كيف حدث هذا .

قال جوهر : وأنا لا أعرف كيف أشرح لك . يبدو أن هناك شخصا آخر كان مكاني . لكن لا تعتقد أنني أحاول أن أبرز أن أرنبة كانت وحدها . وطلبت منى أن أسطر لها خطابا ودعنتى الى غرفتها .

وطيلة وقت طويل لم أفكر سوى في المخدرات • وطريقة للحصول عليها • ثم رأيت أساورها فجساءة • وهي التي بعثت في فكرة القتل • كان يجب أن أحصل على هذه الأساور •

قال يحيى : لم تكن الأساور تساوى شيئاً كبيراً في تلك اللحظة •

قال يحيى : اذن فانا المذنب • أعذرني • كان يجب أن أكون هناك عندما تحتاجني • على كل حال • فلا يتعلق الأمر بتبرير الحدث • المهم هو ان تهرب بأقصى سرعة •

— لماذا أهرب ؟

— حتى لا يقبضوا عليك • هذا الضابط الذي جاء ليراني • انه شيطان • ولن يهدأ حتى يقبض عليك • أريد أن أساعدك ياسيدي • اسمع نصيحتي • أستحلفك • لقد تأخر الوقت •

— عزيزي يحيى أقدر مشاعرك • لا أريد أن تزج بنفسك في هذا الأمر • سوف أنصرف وحدي •

— لايمكنك أن تدافع عن نفسك مع هذا الرجل • ارحل الى سوريا • انها الفرصة الوحيدة •

— كيف أرحل ؟

— سوف أدبر النقود اللازمة لسفرك • اعتمد علي •

— سنقتل شخصا • اذن لن ننتهي •

قام يحيى • ظل لحظة بدون حركة وهو يتطلع الى جوهر • ثم اقترب منه ، أنحنى وأمسك يده ورفعها الى شفتيه وهو يقول :

— أنت الانسان الوحيد الذي أحبه واحترمه في هذه الدنيا • يمكنك أن تأخذ حياتي •

تأثر جوهر • وقد اكتسى بابتسامة حزينة •

— لا تكن جادا يا بني • فهذا سيزيد المشكلة • ثم من أخبرك أن هناك قبيلة سوف تنظم كل الأمور • في الغرفة المجاورة • تتأوه المرأة الآن • تزمز كإنها حيوان يختنق • لم يفشل جوهر في ان يتكهن ماذا يحدث • قال :

— اسمعت • لقد انتهى كل شيء • انهما يمارسان الحب الآن •

— أنت واثق ياسيدي ؟ آه • أريد أن أرى هذا • انه يشهد صامت •

قال جوهر : لم أعهدك متلصصا •

— في حال كهذا يصبح كل العالم متلصصا • وبعد لحظة سمعا صوت اناء من الحديد •

تقدمت الترام رقم ١٣ المتجهة الى الحى الأفرنجى وهى تدق
اجراسها . كان على السائق . أن يضغط بقوة على الجرس كى ينبه
المارة الذين يمشون ببطء فوق القضبان وكأنهم يسرون فى قرية
آمنة . ولا أحد يرى المحصل المسكين الضائع وسط الركاب .
فقط يسمعون صوت يطلق صوته الأجش مطالبا أن يفسحوا له مكانا .
فهذا كل ما يأمله . فعندما يتعطل الترام يضطر الى النزول
لمراقبة السيارات واصلاح العطل . أما بالنسبة لدفع ثمن التذكرة .
فهذه ليست مسألة نقاش .

وقف الكردي يشعر بالمرارة لوجوده فى مثل هذا المكان
البداي . عليه أن يهرب من هذا الترام اللعين الذى يسير بطريقة
مزعجة . لقد تأخر الوقت ، وكل المحاولات مكتوب عليها الفشل
نتيجة لهذه الحشود الآدمية المكسمة على الأبواب . تذرع الكردي
بالصبر ، ليس عليه سوى الانتظار . طبقوا طربوشه أثناء زحمة

الصعود . قالتصق تماما فوق راسه ولم يحاول ان يدفعه . وجد نفسه محاطا بموظف صغير نائم يرتدى عوينات . وامرأة بدينة ترتدى ملاءة لف . تنبعت منها رائحة الثوم . ورغم أن هذا الأمر ليس من خصال الكردي . الا أنه بدا في انارتها محاولا تنادي ووقفته التي يرثى لها . حاول أن يدير رأسه كي يعرف سن المرأة قبل أن يثيرها . ولكن ما رآه أصابه برعشة . فوقف جامدا في مكانه . فالمرأة البدينة تزيد على الستين عاما تبتسم له بطريقة مبتذلة . وهي تكشف عن فمها الخاوي من الأسنان . وهي تستكمل مهمتها بينما وقف الكردي متسمر في مكانه .

الساعة الآن السادسة مساء . والركاب يتزايدون . سحبت المرأة ساقها لكن رائحة الثوم لاتزال تنبعت منها . ود الكردي أن يتقيأ . أغلق عينيه وحاول أن يركز انتباهه في صوت الجرس الذي يطلقه السائق دون توقف . انه ليس متجها الى نزهة ليجد نفسه في ترام كهذا . في طريقه الى الحى الأفرنجي يضع الكردي في رأسه فكرة أخرى . فمنذ أن اتهمته عشيقته بقتل أرنبه وهو يؤمن أنه مضطر أن يرتكب جرما يكافئ به كذبها . يمكنه أن يسرق . في هذا المساء فكر في خطة موضع تنفيذ . يعرف الكردي - وهو مائل أمامه دائما - أفخم محل مجوهرات في المدينة . يقع في شارع فؤاد . ويعتقد أنه بالغ الدهاء كي يستولى منه تلى جوهرة غالية الثمن تردد في الطريقة التي عليه أن يتبعها . فرغم غشيانه الا أنه حاول أن يتذكر كل ما يتعلق بالجواهر التي يقرأ عنها في المجلات المتخصصة ، أو الروايات البوليسية . ما الأسلوب الأمثل ؟ يود الكردي أن يحقق جديدا في هذا المجال . فعلى ثوري مثله ألا يتبع نفس طرق اللصوص المشردين . فحبسه العظيم يدفعه . لكن لا توجد فكرة ماثلة في ذهنه .

شعر فجأة بعينين تنظران اليه . فتح عينيه وتأكد من صدق حدسه . فهناك شخص يتأمله بدقة . شخص يشع البؤس في وجهه . الأعور الجالس قريبا من الباب المواجه له مباشرة . تألم الكردي وهو يشعر أن الأعور يحملق فيه بعينه العوراء . كأنما العين السليمة لم تعد ترى .

ظل الأعور ينظر اليه بحدة . وقد شمع الهذيان من عينه الوحيدة . لكن الكردي لم ير سوى العين العوراء فلا تتلاقى نظراتهما قط . استغرق هذا المشهد بعض الوقت . تساءل الكردي عما يورده هذا الرجل . فهو لم يره من قبل . شعر بالعصبية وهو يحاول أن يتلافى الرجل ويفكر في موقفه المثير للاستفزاز . وفي مدى تخلصه من هذا الموقف : سوف أبصق على وجهه ولذا اذا كان ينظر الى . ولكنه خشى أن يثير قلقا في نفس اللحظة التي يستعد لارتكاب جريمة سرقة جسورة . يحتاج فيها الى أعصاب باردة .

توقف الترام في محطة . ثم تحرك من جديد . رأى راس المحصل تخرج فجأة عند الباب ياله من رجل ماهر استطاع أن يؤدي هذه الحركة . صاح - من لم يأخذ تذاكر ؟

لم يرد أحد على هذا السؤال . يبدو المحصل نحيفا . ذا وجه شاحب يرتدى ملابس غير مهندمة . بدا وقحا وهو يهدد بايقاف الترام . فيخرج الركاب نقودهم مغتاظين كأنما يدفعون للمحصل غرامة . تحركوا جميعا عدا الأعور . فهو لا يزال يركز نظراته على الكردي بعينه الوحيدة .

وجه المحصل كلامه اليه وقد فرغ صبره :

- أنت يارجل .

رد الأعور بلهجة جافة دون أن يدير رأسه : مخبر .

تصور الكردي أن الترام سيقف وان كل هؤلاء الركاب سيقفزون منها . تقدم نحو الباب وقفز من الترام فوق الرصيف . عندما وقف يسترد أنفاسه . كانت الترام قد اختفت تماما كأنه كابوس يتلاشى . فقد أحس بالصدمة وهو يسمع الأعور يعلن عن هويته . أي خوف اعتراه : حمدا لله أنه وقع في طريق مخبر غبي كهذا . لكن لماذا كان يرقبه ؟ ليس - بالتأكيد - لأنه يعتزم سرقة جواهر جي . فهو لم يتخذ قراره بعد . فلا يمكن للشرطة أن تقرأ أفكار الناس . فلو كان يرقبه فهناك سبب آخر . لم يتأخر في بلوغ السبب . فالشرطة تعلم أنه ثوري . وقد أخبر الضابط بهذا أثناء الاستجواب في الماخور . وعليه فإن الأعور يقوم بمهمته ابتسم الكردي فخورا وهو يتنهّد . وشعر كأن نشوة تملأ رأسه . اذن فهو ثوري حقيقي . تطارده الشرطة . ويثير قلق السلطات العليا . ولن يسخر جوهر - كالعادة - منه عندما يعلم أية مراقبة رهيبه ترصده . أدار رأسه في عدة اتجاهات كي يرى اذا كان يتبعه أحد . ولكنه لم ير أي أثر للأعور غمرت الأضواء شوارع فؤاد في وسط الحي الأفرنجي الذي سار فيه الكردي بخطى مضطربة واحساس بالقلق انه يسير في مدينة أجنبية . يتساءل دوما عما اذا كان في بلده . لا يصدق . يبدو كل رجال الأعمال كأنهم خارجون من كوارث . وتحمل الوجوه بعض علامات التحذير ، ترى ماذا ينقص هذه الحشود الغفيرة . يتعجب من سلوك هذه الجموع التي اعتادت ان تسير حياتها .

يأسف لتلك الحارات المليئة بالطين والحصاء . هناك الكثير من الآمال في الأكشاك المصنوعة من الصفيح فوق أرصفة رطبة . يعيش أعداء الشعب في هذا الحي . انهم قلعة الضغوط . الثراء الواضح في واجهات المحلات . وأبيه معروضات الأرصفة . كل هذه الأشياء تخطر بباله . فهم الكردي لماذا يكره جوهر هذا الحي .

رأى بائع صحف صغيرا فخرج من كآبته واستعاد عالمه .

- يا صغير . هل معك الصحيفة اليونانية ؟

- اتقرأ اليونانية ياسيدي ؟

- أجل . لماذا لا أقرأ اليونانية ؟

- يا الهى . كل شيء ممكن في هذا البلد .

اشترى الكردي نسخة من جريدة المدينة الوحيدة التي تصدر باليونانية طواها ودسها في جيب سترته . انه في حاجة أن يمارس هذا الغباء . كل هذه الأمور الجادة تثقل عليه كأنها إهانة موجهة لشعب كهذا . أراد أن يهرب من القلق الذي يكتنفه . وقد أنسته المبالغته التي سببها للبائع الصغير خطته . . يالها من نكتة . حان أوان التصرف لقد وصل الى هدفه . وأصبح الجواهرجي على مسافة أمتار .

تذكر تلك الكلمة التي قرأها في مكان ما . ولم يستطع أن ينساها . « المصادرة » . تمثلت الكلمة في ذاكرته . لن يذهب ليسرق بالطبع . ولكن « ليصادر » هذه الفكرة أقامت الطمانينة في قلب اللص . رغم أن هذا لم يغير موقفه بسهولة . بالتأكيد فان الصعوبات تتغير . ولا يزال الكردي أمينا لأفكاره الثورية . وبدت له محاولته الآن بداية عصر جديد من النضال الطويل الدامي مثل الشعلة الخالدة التي لا تنطفئ الا بحرية الشعب .

أثرت فيه عظمة تجربته حتى كاد أن يبكى تقدم نحو واجهة
المحل . كأنه قد ألف هذه الأمور ليس سوى أداة للشعب وقد قرر
الانتقام . توقف . كأنه الميدوزا في مياه المحيط يشاهد الجواهر
تلمع أسفل عينه . وقد بدأت تعكس أشعتها الغريبة على عينه
رأى الكردي نفسه غارقا في حكايات السحرة . وأنه وحده قد
وقع على هذا الكنز الضخم . وعاهى شجاعته تثقل عليه كأنها حجر
ثقيل . أيسرق ؟ هذا صعب لكن كيف ؟ كيف يمكنه أن ينال إحدى
هذه الجواهر التي يشعر أنها أبعد من نجوم السماء . هذه المرأة
التي يحسبها مقابل سداخته تدفع بالدموع الى عينيه تذكر عشيقته
المريضة التي تنتظر حضوره لنجدتها . تأمل كنوز واجهة المحل
بعينه المبللتين . وهو يفكر أنه بشئ من إحدى هذه الجواهر يمكنه
أن ينزع نايلة من مصيرها المجهول . وأن ينقذ الفتاة من الدعارة
ويؤكد لها حياة شريفة هي الآن أمر قوى وواقعي . يبحث يائسا
عن طريقه . فهذه الجواهر لا تزال بعيدة .

وتبدو منتمة لعالم آخر أحس بقوتها . ضم قبضته .
ورفع ذراعه كي يحطم الواجهة . عبت رائحة النرجس
متسللة الى خيشومية مؤكدة وجود امرأة بجانبه . توقفت
ذراعه . خائنه أعصابه . غمرت وجوده فرحة كبيرة .
فهذا العطر كاف تماما أن يخفف من غلوائه دون أن يدير
رأسه . ألقى نظرة جانبية على المرأة الواقفة الى جواره .
ساكنة . هيبية . بدت مشدودة بالثراء المائل في واجهة المحل بنت
بلد أنيقة . لفت ملاءتها جيدا على جسدها فأبرزت مفاتيها . رغم
أن وجهها ظل مختلفا أسفل البرقع الحريري الأسود . كشفت
عينها المدغمتان بالكحل عن جمال باهر مثل هذه المرأة كفيفة ان
تثير مشاعر الكردي الذي غاص في جلده . بدت مشغولة بعقد من
الماس بدا لها انه الشيء الوحيد المعروض في الواجهة .

سحر هذا المخلوق الكردي تماما أعجزه عن التفكير . ثم
تملكه الخوف أن تذهب مما دفعه أن يقول بصوت هامس :

- اعتقد أن هذا العقد قد أعجبك .
- تلفعت المرأة كأنها ثعبان . وقالت :
- لكن أين الثرى الذي يقدمه لي ؟

لم يجد الكردي شيئا يرويه هذه الدعوة الزكية . فالمرأة
عاهرة . ولكنها عاهرة من درجة راقية . لن يقدم لها - بالتأكيد -
العقد الماسي . ولا حبة ذرة مشوى . من تتصوره فكر . انه يتصرف
كتاجر . وهو لا يخشى شيئا . فليس لديه شيء يفقده في مغامرة .
لاتشك هذه الأنثى الغبية فيمن تحدثت معه . لا يملك لها شيئا انه
يحب النساء كثيرا ويعرف خصالهن ويجيد التصرف معهن .

الآن آمن أن القدر لم يسقه الى هذا المكان الا ليقابل هذه
العاهرة التي تبدو أرسقراطية . بحث بسرعة عن دعاية كي يستمر
الحديث ويعمل على اضحكاها .

لكن المرأة لم تترك له الفرصة . تركت واجهة المحل بسرعة .
وذهبت بسرعة كأن شخصا أهانها . لعلها فهمت أن صمت الكردي
قبول . هل صدقت حقا أنه سيشتري لها عقد الماس ؟ أي جتون
تبعها الكردي . لم تكن وحدها . فتاة صغيرة ذات ضعائر ربطتها
بشريط وردي وترتدى قبعا خشبيا . رأى الكردي أن الفرصة
سائحة . فالصغيرة غامل هام كي يتعرف بسرعة على المرأة . تابعها
بخطى سريعة ثم سار في حداثها منتظرا اللحظة القاسية ليدخل .
يمكنه الآن أن يتكلم عن أناقة المرأة التي تهز مؤخرتها . وتقرقع
رصيف الشارع بكعب حداثها العالي . تسير كأنها نائمة . تنظر
الى الأمام . تختلف عن تلك التي باحت برغبتها . بدا مرتبكا

بصورة لم تحدث له من قبل في علاقته بالنساء . يعيش الكردي لحظات حاسمة لقد نسي كل أفكاره عن الشعب الفقير والثورة . وانتقال القوى العاشمة . يمكن لكل هذا أن ينتظر . فهو الآن مشغوم باصطياد هذه الفريسة . ارتجف وهو يتخيلها بين يديه .

ود إن يولى اهتمامه الى الصغيرة التي امتلات نظراتها بالانتقاء والغيرة . استعد لدخول المغامرة . أدخل يده في جيبه المليء باللب وبدأ في شخصيتها . ثم مد يده المفتوحة بكل براءة نظرت الفتاة الى يد الكردي دون أن تجرؤ على لمس اللب .

- خالتي !

سالت المرأة بلهجة حادة : ماذا ؟

بدت كأنها تتجاهل وجود الكردي !

- هل يمكن أن آخذ ؟

- ماذا ؟

- اللب .

- خذيه . كما تشائي .

استدارت الفتاة نحو الكردي وقال :

- خذي .

ثم سكب اللب في جيب الفتاة . بدأت الفتاة في قزقزتها متعمدة . داعب الكردي شعرها بحنان أبوى انهما يمثلان الآن أسرة واحدة تقوم بنزعة . شعر الكردي بنشوة النصر . وانه ليس

بعيدا أن يتزوج الآن من المرأة التي بجانبها . لا يهم . فهو قادر على كل شيء . لم يقابل أبدا غانية لها نفس الجمال والأناقة . انها فرصة حياته لم يصدق انه حصل عليها . فهو لا يحب الفشل . ورغم ان المرأة تجاهلته الا أن الكردي يملؤه الامل . استمر في مداعبة الفتاة :

- ما اسمك ؟

- اسمي نجفة .

قال ملحا : اسم جميل . هل تحبين اللب ؟

- أجل وأكله دائما .

- حسنا . في المرة القادمة سأشتري قرطاسا كبيرا .

هنا توقفت المرأة . واجهت الكردي وقالت بشبات .

- اعتقد أن الوقت حان لتتكلم بجديّة .

فوجيء الكردي بهذا الهجوم السريع فتلعثم قائلا :

- بالطبع . فأنا أنتظر هذه الفرصة .

عليها أولا أن تطرح سؤالا . ثمن سحرها ! فهم الكردي ان عليه أن يلعب بجديّة . ليس مستعدا ان يدفع لها أو يشتري شيئا .

سالت المرأة : ما هي نياتك ؟

قال الكردي مؤكدا : أحسن نية في الدنيا . تحت أمرك . عليك أن تأمرى .

- أين ستأخذني ؟

- فى منزلى . لدى شقة تليق بك . أنا واثق انها ستعجبك .
خاصة أاثائها الحديث . حاول أن يتجنب الأسئلة الجادة . يبدو
انها لاتصدقك :

- فى أى حى هذه الشقة ؟

- فى المنشية . على مسافة خطوات من هنا .

- اتسمى هذه الخطوات انها بعيدة . آسفة . لا أستطيع
أن أجي :

- بشرفى . أؤكد لك انها ليست بعيدة . ثم لا تقلقى .
فسوف تقضين الليلة . هناك الشقة كبيرة وستقيم الصغيرة فى
الصالة .

نظرت اليه مدققة : أفضى الليل هل انت ترى الى حد أن
ندفع ثمن الليلة . يا الهى . ماذا تنظرته . لم يكلمنى أحد هكذا .
هل ابدو صائعا . أنا موظف كبير فى الحكومة بدت المرأة مترددة
وأخذت تفكر .

- أود أن أصدقك . لنركب عربة حنطور .

بدأ الكردي يحسب النفود التى فى جيبه . انها لا تكفى لعربة
حنطور . تنهد بصوت خفيض ملىء بالخجل لكنه لم يسمع أى رد
على نداءه . قال :

- سنجد وسيلة . لنسر ، ألا ترين أن الجو جميل ؟

لم تكن المرأة غبية . فسرعان ما فهمت :

- تنزه وحدك . يا موظف الحكومة ياعرة .

وذهبت . تعلق الصغرة بملاءتها الحريرية وقد بدا عليها
الكبرياء .

نظر اليها الكردي متحسدا . لم يصدق أن حلما جميلا
انفلت . سمع الضحكات تتعالى من حوله . أطلقها بعض المارة
الذين تبعوها بدافع التسلية ويرون الآن خيبته استدار الكردي
ناحية هذه الضحكات . نظر اليهم بكبرياء . وعاد مرة أخرى
الى تعاليه .

رغم أن بيت الست أمينة قد أعيد فتحه مرة أخرى منذ أسبوع .
الا أن الكثير من الرواد لم يجرؤوا على دخوله مرة أخرى . يجلس
القليل من الزبائن فى الصالة كأنهم أتوا لحضور جنازة أحسوا أنهم
يقعون فى فخ . ولم يصدقوا فى هذا .

تم الاتفاق بين السلطة والست أمينة على استعادة أعمالها .
تمنى نور الدين أن يعود القاتل . كالعادة الى مكان الجريمة .
وان يكشف الشخص الذى يبحث عنه . ومن هذا المنطلق كلف أحد
أفضل أتباعه أن يذهب الى الماخور مدعيا أنه ترى كبير . يعود
فخورا كل مساء منذ أن فتح المنزل مرة أخرى . يتصرف كفلاح
قادم من الريف باحثا عن المتعة فى العاصمة . يعتذر فى اللحظة
الأخيرة عن مرافقة إحدى البنات الى حجرتها . أثار هذا السلوك
الأقاويل حوله . من ناحية أخرى فقد كشفت أسئلته عن سره .
والجميع يعرف الآن انه مخبر . أدركت الست أمينة السر منذ أول
لحظة . لكنها تصنعت الجهل . ماذا عليها ان تفعل ؟ . الآن تجلس
فوق أريكتها كالعادة . تنظر الى المخبر يتحدث مع عقيلة .

بدأت تشكو لأحد الزبائن الذين يجلسون قرابة منها على
الأريكة . يحدثها عن حسرة العصر الذى أصبحت فيه عاهرة غير
مطلوبة .

- هانت ترى ! يريدون أن يحطموني . ألن يذهب هذا الرجل أبدا ؟
- اهنتى يا امرأة . سواء كان مخبرا أم لا . فهو على الأقل زبون .

- زبون ليخلصنى المرض من أمثال هذه الزبائن .
- اسكتى . يمكنه أن يسمعك .
- ليسمعنى . فأنا سيدة البيت .

- توقفت عن البكاء . أسندت يديها على وجنتها - وهى التى اعتادت الحديث عن متاعبها . ولم تشغل بالمخبر كثيرا .

تسى جوهر أرنية تماما . جلس فوق مقعد كبير وهو يراجع الأرقام المدونة داخل مربعات فى كراس مدرسة ذات غلاف أصفر استعداد وظيفته سعيدا كرجل أدب فى خدمة العاهرات . أما ساحبات الماخور فهى شئ بسيط . ولا تتطلب أى تركيز ذهنى . يرفع رأسه من وقت لآخر كى يتشرب بهذا المزيج من النقاء والحسوبة فبدلا أن يقلقه تواجد المخبر . الا أنه جعله يشعر بالأمان . فهذا الرجل يبعث على تسليته . يضايقه بهذه الأسئلة السخيفة . ألم يدرك أن الجميع قد عرفوا حقيقته منذ فترة طويلة ؟ شعر جوهر بالمتعة . وهو يرى شرطيا . فى مهمة يحاول حلها دون أن تبدو فيه الغلظة . وما يفعله يتضارب مع عمله .

أحس جوهر أن خطر القبض عليه قد قل وأنه ليس بنفس الصورة التى تحدث بها يحيى فقد أثر فيه تصريح هذا الأخير - وطلبه أن ينفذه بكل ما به من صفاء . فيحى قادر ان يبيع حتى ملابسه . كى يوفر له ثمن سفره وقد يرتكب أى شئ غير

قانونى . وأن يحدثه عن كل الاحتمالات المتعلقة بانقاذه ؟ انه ضعيف أمام هذه النداءات المليئة بالمحبة . ثم ألم يفده يحيى بحياته ؟ هل يمكن أن ترفض خدمة رجل يطلب منك ان يفديك بحياته ؟

سيكون هذا نقص شعور . واهانة للصدقة .

آه لو استطاع الهرب . وسافر الى سوريا . يتخيل حقول الحشيش الواسعة وهو يقوم بزراعتها . هذا النبات الرائع بهاتين اليدين اللتين خنقنا العاهرة الصغيرة . لكن هذا الحلم الشرير لم يستمر سوى لحظة .

- جوهر أفندى .

ينادية المخبر . وهو يستكمل غزله لعقيلة . استغفار ناحية جوهر كى يسدى اليه نصيحة بصوت عال قال جوهر ؟ وكأنه الآن فى بيت مليء بالجلادين . رفع الكردي المنديل ووضع فى جيبه وجلس قريبا من جوهر قال له همسا ؟

- لا شئ . كنت أتخفى .

- لماذا هذا الغموض ؟

- انهم يطاردوننى يا سيدى . يعرفون أننى ثورى .

- من ؟

- الشرطة . انها تطاردنى . أنا واثق . اسمعنى ياسيدى لقد ركبت الترام هذا المساء كى أذهب الى الحى الأفرنجى .

كان هناك ازدحام شديد . كدت أن يكسر عظمى لم أستطع أن أحرك اصبعي . وبينما أقف فى مكانى . رأيت رجلا يجلس

نايلة مريضة وأريد أن أنتشلها من هذا المكان الملعون . ثم هناك أخريات .

- وأى أخريات . هل لك أسرة ؟

- لا . ليس لى أسرة . أفكر فى هذا الشعب المطحون البائس . ياسيدى لا أفهم كيف تظل ساكنة ازاء الأقدار الذين يفسدون هذا الشعب ؟ كيف يمكنك التغاضى عن القهر ؟

- أسمعك .

أرضى الزبائن الموجودين فى صالة الانتظار ما سمعته آذانهم : فكل ما يقوله المخبر يهمهم جميعا .

قال الشرطى :

- عملية قتل البنت أرنبه تذكرنى بحكاية قديمة حدثت فى ماخور أيضا . لا أعرف هل تذكرها . لقد تذكرت بعض تفاصيلها فجأة .

- فكله هذا الغبى ثانية عن الجريمة . سعل جوهر وأمسك عضاه وقال بلطفه المعتاد :

- آسف لا أذكر شيئا .

- انها حكاية حدثت قبل الحرب . تكلموا عنها كثيرا فى تلك الآونة . تتحدث عن عاهرة قتلت بطعن السكين . وعند تشريحها اكتشف الطبيب الشرعى أنها عذراء . الأكثر غرابة انها ظلت تمارس مهنتها عشرين عاما . ما رأيك ؟

أضاف جوهر : غير معقول .

امامى ينظر الى بريبة . بدا مرعبا . فالرجل أعور . وبعينه العوراء يرقبنى . ولك أن تتصور الرعب الذى شعرت به .

- مالذى جعلك تتصور أنه شرطى . ربما ليس أكثر من رجل أعور .

- دعنى أروى لك الباقي . فهى قصة عجيبة . عندما جاء المحصل لبيع التذاكر . قال بلا شك وبكل غباء رد مخبر وبكل بساطة .

قال جوهر : غريب . اعتقد انك انفجرت ضحكا .

- كيف أضحك يا سيدى ؟ لقد قفزت لتوى من الترام وهى تسير .

سال جوهر : لكن ماذا كنت تفعل فى الحى الأفرنجى ؟

- لقد أخبرتك اننى سأدبر مالا . ذهبت الى الحى الأفرنجى كى أسرق من جواهرجى فى شارع فؤاد .

- وهل نجحت ؟

قال بمرارة : لم يكن الأمر سهلا كما تصورت . واعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يفعل . فى الواقع فلم يكن يفكر فى واجهة المحل المليئة بالجواهر . ولكن فى تجربته الضائعة مع المرأة . كانت تود عربة حنطور . كاد أن يروى الحكاية لجوهر ولكنه تراجع فهذا الأخير يعامله كثورى .

- ولماذا تحتاج الى مال ؟

- ليس لى ياسيدى . فانا أستطيع أن أعيش فقيرا . لكن

- اليس كذلك ؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيها .
عاهرة عذراء اليست لديها أية ثقة في أحد ؟!

قال جوهر : حتى العاهرة تخفى ما يثير الدهشة .

- تعجبني فلسفتك . أرى انك رجل خابر الحياة جيدا .

ضحك الشرطي ضحكة غليظة دافعا اياها وهو يقبلها في
فمها بطريقة وحشية . ضمنت عقيلة أنه على وشك أن يفقد أنفاسه .
الى اللقاء يا جوهر أفندي .

- تفضل .

قالت الست امينة : أخيرا ، قرر . السافل على الأقل فلن
يتسلى في بيتي دون أن يصرف شيئا . عاد جوهر الى حسابه .
لقد أثارته الحكاية ويمكن أن تحدث . هذه البكارة التي تفضل .
المائلة في جثة العاهرة القتيلة . الا تعتبر أغرب من جريمة ؟ حل
جوهر اللغز . عليه أن يأخذ هذا العالم الساخر بصورة جادة ؟
سوف يثير هذا جنونه . سنوات طويلة من الجنون .

- كنت أعرف ياسيدي أنني سأجده هنا . فلدي شيء هام
أريد أن أخبرك به .

ظهر الكردي في قاعة الانتظار . يكاد الطربوش يلمس أذنه .
وقد غطي أسفل وجهه بمنديل يمسكه بقوة كأنه يحبس به دما .

- ماذا بك يا بني ؟ هل جرحت ؟

رفع جوهر صوته وهو يرد عليه :

- لم أنكر وجود الأقدار يا بني .

- ولكنك تكافئهم . أنت لم تعمل شيئا لمحاربتهم .

- ليسست صحتي موافقة . أنا أحاربهم أكثر منك .

- بأي طريقة ؟

قال جوهر : بعدم التعاون . أرفض كل أنواع التعامل لكل
هذا التحلق المتناهي .

- لكن الشعب لا يقر هذا الموقف السلبي . عليهم العمل
ليعيشوا . كيف لا يمكنهم الا يتعاونوا ؟

- ليصبحوا جميعا صعاليك . ألسنت صعلوكا . عندما نكون
بلدا يصبح فيه كل الشعب صعاليك . فسوف ترى ماذا سيقدمو
هذا العالم . سوف يسقط في الوحل . صدقني . انها المرة الأولى
التي يسمع الكردي جوهر يتكلم بلغة عنف مماثلة . يعرف أن
لديه أفكارا حول انقلاب السلطة البغيضة . لماذا لم يقل شيئا من
قبل ؟ قال :

- نحن شعب من الصعاليك . يبدو أن هناك أشياء كثيرة
علينا أن نفعلها .

- أجل . أمامنا أشياء كثيرة نفعلها . هناك ناس مثلك
يتعاونون .

- أنت مخدوع ياسيدي لا أعمل شيئا . فانا متمرد في
الوزارة .

ظل جوهر صامتا ، انه لا يرضى عنه . أية حاجة له في
الدفاع ، وأن يذكر وجود الأقدار وهو الذي تخلى عن كل شيء .
الراحة . والسعادة . كي لا يشارك هؤلاء الأقدار . ماذا يعتقد

الكردي اذن ؟ ليكن الوحيد الذي يعرف بؤس الشعب الذي تسيطر عليه عصابة من اللصوص والداعرين رغم أن طفلا يعرف هذا . ابتسم وهو ينظر الى الشاب قال وهو يداعبه :

- لتعرف أن هنا مخبرا يمارس الحب مع الصغيرة عقيلة .
- قال الكردي يا الهى حقا . على ان أكون حريصا .
- قام فجأة كأن المكان أصبح خطرا بالنسبة له .
- آسف على الجرائد يا سيدى سوف أحضرها غدا .
- شكرا يابك . يمكن ان أنتظر .
- خذ هذا . لقد قرأته .
- أعطاه الجريدة اليونانية .

كانت الست أمينة تنظر اليه بريية . أطلقت تهيدة وهي تراه يقترب منها :

- هل نائلة فى غرفتها ؟
- دعها تعمل . هل تريد أن تحطمنى ؟
- لن تتحطمنى اليوم يا امرأة ها هي . عادت نائلة من الصالة .
- دون أن يعير الكردي أهمية . نظرت الى الست أمينة وأعطت لها النقود فوضعتها فى صدرها . قال الكردي :

- تعالى لغرفتك . يا عزيزى . فعندى كلام لك .

قالت نائلة دون أن تنظر اليه : دعنى . أنا هنا لأعمل وليس لاسمع حكايات قالت الست أمينة : اذهبى يا فتاة . هذا الوالد مجنون . ولا أريد فضائح .

- لا . يا خالتي . لن أذهب . لا أعرف هذا الرجل .

جلست على الأريكة قريبة من الست أمينة باحثة عن حماية فى وجودها .

لم يفهم الكردي سبب هذا البرود المفاجئ لماذا تتجنبه ؟ أخذ مقعدا وجلس أمام عشيقته وقال :

- يجب الا تعملى . قلت لك استريحى .
- هل ستؤكلنى ؟

بدا الأمر تحديا . فهل يتعلق الأمر بالأكل . قال بصوت مرتبك :

- الشرطة تطاردنى وانت تتكلمين عن الأكل .
- قالت الست أمينة : اسكت . لا تتكلم عن الشيطان . فهو ليس بعيدا .
- عاد المخبر . وهو يتأبط ذراع عقيلة مزمجرا كأنه الرجل الوحيد القوى فى الحى كله .

همس بكلمات حب فى اذن الفتاة وابتسم للحاضرين كأنه يود أن يعتذر عن المتعة التى نالها منذ قليل .

استدار الكردي بهدوء نحوه وقال يتودد :

- اذا كان هناك رجل شرطة فى هذا البيت فأريد أن أعرفه .
- هتف ذلك الذى يدعى انه فلاح قادم من الأرياف وهو يمثل دور الشريف الذى يخاف من وجود الشرطة :
- شرطة هنا ياله من نهار أغبر .

قال الكردي وهو يشير له بأصبعه : يبدو انه أنت .

شجب الرجل :

— أنت غلطان يا أفندي . فلست سوى تاجر شريف .

تدخلت الست أمينة لاتهن زبائني . هذا رجل تبيل
وأنا أعرفه .

قال الكردي وقد تسلطت عليه صرعة غريبة : أنت التي قلت
ان هناك رجل شرطة في البيت .

صرخت الست أمينة : أنا ؟ أيها الجاحد . وأنا الذي أعانك
كأبني في هذا البيت .

قال الشرطي : اهدوا . أيها الناس الطيبون . هناك سوء
تفاهم بسيط .

قال الكردي : لافائدة . أنا مستعد أن أتكلم .

— تتكلم عن ماذا يا أفندي .

— اعترف أنني قاتل الفتاة أرنبة .

فتح الشرطي عينيه وقد اكتسى وجهه بتعبير غريب . نجمدت
نايلة لحظة . ثم انفجرت باكياً . تأمل جوهر المشهد من مكانه
وهو يبتسم . بالتأكيد لن يتغير الكردي أبداً . لقد وضع نفسه
في موقف قدر كي يثير دهشة هذا الجمع المسكين .

(١٠)

وقف العملاق ذو الكتفين العريضين في دكانه الخشبي .
كأنه مومياء في تابوتها . حانوت ضيق . يتسع نصف متر بعرق
ثلاثين سنتيمتراً . مزخوم بالزجاجات المليئة بالعطور وعلب المراهم
والقنينات المليئة بالسوائل ضد الضعف الجنسي والعقم . تفوح
منها روائح كثيفة . تجعل الجو غير محتمل حتى آخر الحارة .
وربما أبعد .

وبحركة عنيفة . فك الرجل غطاء القنينة ، فاحت رائحتها
للزبونة الواقفة على عتبة الدكان قال :

— نقطة واحدة من هذا العطر يميت الرجال من أجلك .

ردت المرأة ضاحكة : لا أريد أن أقتل أحداً . ولكن ان
اعجب زوجي .

قال الرجل : اذن لن ابيعك اياها . رحمة به . لأنه سيغدو
مجنونا .

— يا نهار أغبر ! لماذا تقول هذه الغباءات ؟ سوف اشتريها
له .

— حسنا . بعشرة قروش لأجل خاطرك .

فتشت في ثنايا ملاءتها . اخرجت منديلها . وفكته وعدت
النقود . فسلمها التاجر القنينة قال :

— لن يستطيع زوجك ان يقاومك . مستحيل أن يعيش
بعيدا عن هذا العطر .

— اذا جاءك فلا تبع له منها .

— لأجل خاطرك . لن ابيعه منها .

ذهبت المرأة حاملة القنينة . واستدار الرجل ناحية يحيى
وقال :

— حسنا . السعر يناسبني . سوف آخذ البضاعة .

— سأحضرها لك في أقرب وقت . لا أعرف متى . يجب أن
تسلمها قريباً .

— اتمنى ان تكون بضاعة جيدة :

قال يحيى : أحسن حال . انت تعرف . سلام عليكم .

وهو يترك حانوت العطور . اتجه يحيى ناحية قهوة المرايا .
اصابه بعض القلق . فقد بدا الرجل متخوفاً . ليس من السهل
اغراؤه . فالأمر معروف بين تجار المخدرات . وقد جرب يحيى
مرات عديدة ويجب أن يقر أن هذا احتمال . فالأمر يتعلق بكمية

من الهرويين . حين تأتي لحظة تسليم البضاعة فان اللقافة تحتوى
على سلفات صودا مشتراة من صيدلية . يجب أن تتم الصفقة
بأسرع ما يمكن . وسيمنع هذا المشتري من فحص البضاعة . الا
أنه عندما يكتشف اللعبة يكون الوقت قد تأخر وليس امامه سوى
ان يلعن اللص . دون أن يجروا على الشكوى لأحد .

لم يفعل يحيى هذا منذ امد طويل . ليس لأنه واع ولكن لأن
شهرة السيئة قد جعلته مشبوها بين تجار المدينة . وأصبح من
الصعب عليه أن يجد ضحية جديدة . اما هذا الرجل الذى عثر
عليه أخيراً فهو تاجر لم يقابل مثيلاً له وسيعقد معه أحسن
الصفقات . المخاطرة كبيرة . لأن الرجل مرشد شرطة . يمكن ان
ينصب له فخاً . ولكن يحيى ترك نفسه تنساب في هذه المخاطرة .
فهو لا يعرف وسيلة أخرى لجلب النقود التى يمكن ان يسافر بها
جوهراً الى سوريا والهروب من مطاردة الشرطة .

في مقهى المرايا . وجد جوهراً جالساً امام الكردي .
لا يتكلمان . بدا الكردي أكثر قتامة عن أى وقت آخر . جلس
جوهراً يلف لفافته بالحشيش وقد هبطت عليه السكينة . تاهت
عيناه في حشد الرواد الذين يملأون رصيف الشرفة . من وقت
لآخر . يمسك الزجاجة الموضوعة امامه ويحتسى من الشاي
الساخن جلس يحيى معهما دون أن ينبس ببنت شفة . فهو
لا يرغب أن يتكلم . يفكر فيما فعله منذ قليل . سوف يحصل
قريباً على المال الذى يمكن جوهراً من سقره . فانقاذ جوهراً من هذه
المحنة يعد بالنسبة له واجباً مقدساً . وطيلة هذه الأيام . لم
يفكر سوى في الطريقة التى يساعده بها . اصابته الدهشة حول
تورط جوهراً في مثل هذه الجريمة . فهذا الغموض لا يزال
يلبسه . كيف وصل جوهراً الى هذا الحد ؟ وأى عبث دفعه أن

يقترف امرا لم يتعمده ؟ فجوهر هو اقل البشر ميلا لممارسة العنف
كيف يتخيل أن يهاجم عاهرة لا حول لها ولا قوة • مخلوق بانس
مثل الآخرين • أراد يحيى أن يسأل جوهر عن كل تفاصيل الحدث
الذي داني الذي دار بينه وبين ضحيته ، ولكن نوعا من العفة •
والكتمان يملكانه • أى حاجة للمعرفة • يجب أن تبدو الصداقة
الحقيقية فى أحسن صورة • دون أن تكون هناك تفسيرات •

انطلق صوت الراديو فجأة كأنه العاصفة • تعالت الموسيقى
بصورة لا تحتمل • هزت الريح جوهر • بدا كأنه لاحظ وجود
يحيى • فانطلقت ابتسامة باهتة من وجهه • قال :

— يبدو عليك التعب • ماذا حدث ؟ هل هناك متاعب ؟
رد يحيى : لا شئ • أنا متعب ليس الا • لم اتم فى سرير منذ
أيام •

— هل تركت فندقك ؟

— أجل سيدى • فهو خطير ، لقد عرفت الشرطة عنوانى •
ولست معى تقود • ولا يوجد فندق يود أن يقبلنى بالأجل •

— هل يمكن ان افعل شيئا ؟ حجرتى تحت امرك •

— اشكرك يا سيدى ! سوف تكون معى تقود هذا المساء •
وآنذاك سيكون لى سرير ملكى •

— هل تعتقد انهم لن يجدوك ؟

— أنا فى حاجة ان يتركوننى فى حالى أياما ، أودى فيها
ما يهمنى من أعمالى • سوف يرتب هذا الأمر • فكل ما يمكنهم
هو مضايقتى • لكنهم لا يمتلكون شيئا ضدى •

قال جوهر : لماذا لا تترك الأمر يأخذ مجراه • ماذا تخشى •

— أخشى أن افقدك يا سيدى • آسف لهذه الانانية • اعرف
انك تسخر مما يمكن ان يحدث لك • فكر فى اننى لا احتمل
فقدانك •

— سوف تفقدنى اذا رحلت الى سوريا •

— يكفينى ان اعرف انك على قيد الحياة • حتى لو كنت
بعيدا •

كيف يخبره أنه يخشى أقصى عقوبة بالنسبة له : الاعدام •
يعيش روح جوهر فى عصور اخرى • تبقى ذاكرته قوية كالحجر
الصوان ولكن هل هذه هى السعادة ؟ اية ذكرى يمكن أن تسبيل
الكلام الحلو ؟ هل تحتوى الكنوز البشرية على مشاعر حنونة ؟
لا • فيحى فى حاجة الى جوهر حيا حتى وان ابعده المسافات •
فجوهر يكفيه ان يكون حيا • فوجوده فى أى مكان سبب لسعادته •

هز الكردي رأسه وبدا كأنه غرق فى خيالات واسعة • نظر
الى رفيقه كأنه يلمحهما فقط • وقد برقت عيناه • سأل بجدة :

— عم تتكلمان • هل سترحل فعلا الى سوريا يا سيدى ؟
اذن ستتركنا وحدنا استحلحك أن تأخذنى معك • أود أن ارحل
معك • لترحل حالا • قلدى عربتى • والجياذ مستعدة • ماذا
تنتظر يا سيدى ؟

قال يحيى : ماذا هناك • بشرفى انت تهرق •

قال جوهر : أعتقد أنه على غير وفاق مع عشيقته • لقد حدث
هذا توا • لا تقلق •

قال يحيى : سوف اهدئه • عزيزى الكردي • اسمعنى •
لقد رأيت وأنا قادم جامعة أعقاب سجنائى بدت حسناء • أعتقد انها
ليست بعيدة •

نظر جوهر الى الكردي وبدأ فى محادثته بصوت خفيض •
وفجأة ارتسمت الدهشة على وجهه • فقد رأى شخصا يعرفه فى
الحشد الفقير • قال :

- انتبهوا • ها هو الضابط المكلف بالجريمة • قادم نحونا
كونوا حذرين • ولا تقولوا شيئا •

قال الكردي : سأقول ما يعجبني • فانا لا أخشى أحدا •

بدا جوهر كأنه لا يفهم شيئا • أمسك الكوب بهدوء واحتسى
بعض الشاي • استند الكردي على المقعد وقد شعر بالكبرياء •
وكانه يستعد لمركة فاصلة •

اقترب نور الدين من مائدتهما • بدا أنه لم يرهما • قال
يحيى مبتسما بسخرية : سلام يا حضرة الضابط • الا تشرفنا
قليلا •

دعك نور الدين عينيه • وقد بدا جامد القسما • بالتأكيد هو
فى حاجة الى هذا اللقاء • فهو ليس وحده • يصحبه سمير •
بدا مترددا لحظة • ثم ابتسم بفتور وقال :

- مفاجأة سعيدة • سأكون ممتنا أن أعرف على أصدقائك •
لكن يبدو اننى تشرفت بالتعرف على هذا الشاب • أظننا تقابلنا
من قبل •

رد الكردي وقد بدا عليه التعالى : فعلا • وأنا سعيد انك
تذكرنى يا حضرة الضابط •

- كيف يمكن أن أنساك • لا أنسى أبدا رجلا ذكيا مثلك
فحدثنا فى ذلك اليوم قد ترك انطبعا طيبا عنك • فكرت كثيرا
فى هذا اللقاء • دعنى أقدم لك صديقى • طالب فى كلية الحقوق •
له مستقبل مرموق •

هز سمير رأسه • لكنه لم يمد يده للمصافحة • يبدو
كأنه يجاهد لكيت أعصابه • انه خجول • لا يشك ان كل هؤلاء
الناس ليسوا على شاكلة نور الدين • حاول أن يذهب وهو يبدى
ازدراء للموقف •

قال يحيى : وهذا جوهر أفندى • كيف لم تتعرف على
جوهر أفندى • هذه فجوة كبيرة فى حياتك •

قال نور الدين محييا جوهر : أنا سعيد بسد هذه الفجوة •
سأل يحيى : ألا تجلس ؟

يبدو سعيدا لهذا اللقاء بدأ يلف حول المائدة مقبدا المقاعد •
جلس نور الدين • تردد سمير لحظة • ثم جلس بدوره وهو
يرمق الضابط بازدراء • كم سيكون سعيدا وهو يقتله •

سأل نور الدين : هل تتناول شيئا ؟

ودون أن ينتظر الرد نادى النادل وطلب شاي لكل الجالسين
محاولا أن يبدى كرمه • قال يحيى :

- هذا شرف كبير فعلا يا سعادة البك • انت تخجلنا
بكرمك •

قال نور الدين : عفوا • لم أفعل سوى الواجب •

ثم غير لهجته فجأة وقال :

.. علمت انك غيرت الفندق . هل هذا صحيح ؟

رد يحيى : فعلا . وجدت هذا أفضل . فسعادتك تعرف ان
الفندق خال من دورات المياه . ومن الصعب ان أقيم فيه فترة
طويلة . ولعلك تقدر ذلك .

— هل يمكننى أن أعرف أين تقيم الآن ؟

— طبعاً . فليس لدى ما أخفيه . أقيم الآن فى « سميراميس »
فندق درجة أولى . مكان رائع . يقال ان الحياة تبدأ حين تدخله .
أسف — فكما تعرف سعادتك — فأنا مصنوع للأماكن الفخمة .
قال نور الدين مبتسماً : أعتقد أنك مجنون دائماً . لا يهم
سوف أسمعك فيما بعد .

— هذا يسعدنى يا سعادة البك .

كان يحيى هو الشخص الوحيد — بين الجالسين — الذى
قدركم أن الموقف حساساً . وأن الضابط والقاتل يجلسان على
نفس المائدة . يدعوهُ الى شاي . ويتصرف بتلقائية . وهذا
أمر طبيعى . تناسى وجود جوهر الذى لم يكف عن الدعابة
والمزاح — لم يستطع أن يقاوم رغبته فى استغراز نور الدين .

— سيدى الضابط . هل القضية فى تطور ؟

رد نور الدين : لست أسفا . فنهايتها وشيكة . لا تنسى
ان الصبر هو الفضيلة المطلوبة فى مهنتنا . على فكرة . هل فكرت
فيما سألتك عنه فى ذلك اليوم ؟ فهناك أمور تتعلق بك . وأعتقد
اننى اقترفت ذنباً ضدك .

قال يحيى : فكرت . أحب أن أساعدك . صدقنى . وهذه
القضية موضع اهتمامى .

— خسارة . نكن ليس هذا مكاناً للكلام فى هذه الأمور
سوف أتحدث معك مرة أخرى . فلدينا الكثير لنقوله . سوف
أخرج هذا المساء للنزهة مع صديقى . علينا أن نزيل الملل من
وقت لآخر . اليس كذلك ؟ نحن هنا أصدقاء . لننتمع . أما
العمل ففيمما بعد .

قال الكردي وهو يخرج من كآبته : انتبه سيدى الضابط .

قال نور الدين : بالطبع . أتساءل فيما قلته . ألم تقل كل
شئ . لقد سمعت قصة غريبة يبدو أنك تريد أن تورط نفسك
فى حكاية قتل أرنبة . اليس كذلك ؟

قال الكردي : أنا لم أخدعك . ولا أتكلم شيئاً . ماذا تنتظر
لتقبض على ؟

قال يحيى : أنا لا أعرف شيئاً عن هذه القصة يا عزيزى
الكردي . أهنتك .

رد نور الدين . لن أقبض عليك . لأننى أعرف أنك لست
القاتل . لماذا تريد أن نقبض عليك ؟ أدعش من شاب مثلك .
مثقف . ويتكلم بلغة أجنبية . ويتصرف بهذه الطريقة . لا أستطيع
أن أفهم دافعك . هل يمكن أن تفسر سبب ذلك . جوهر أفندى
أعتقد أنك كنت موجوداً أثناء هذا المشهد ؟

ران صمت . تركزت كل الأنظار على جوهر . وخاصة
سمير الذى تطلع اليه بتركيز . وهو يشعر انه سيسمع شيئاً
هاماً .

لم يتكلم جوهر . دامت لحظة لم يشعر فيها سوى بكرة المخدرات في فمه ، كادت أن تنتهي . ابتلع بقاياها وهو يحاول أن يتلذذ بأحر نقطة من مداها . وتتلون الأشياء من حوله بألوان جميلة . وهو لا يستطيع أن يحدد أية تفاصيل امامه . تتحور الضحكات والأصوات الى همس بالغ السرية . وكأنها تنهدات امرأة في لحظة الذروة . تركزت عيناه على نور الدين . بوغت بهذا الاحساس الفريد الذي يشعره المرء امام جلاده . اكتشف ان هذا الجلاد ذا المظهر العنيف مرتبك وقلق ويشعر بالخطر حوله يا لها من نظرة ألم . أى عذاب معنوى يتمثل في وجهه الصارم . تبهته غريزته ان لا شيء يخشاه من هذا الرجل . بل ان هذا الرجل في أمس الحاجة الى مساعدته والى الشفقة عليه .

قال يحيى : سيدى الضابط . انتظر . لنسمع رأيك .

علق جوهر : حسنا . أعتقد اننى يمكن أن أفسر سلوكك صديقى الشاب . الكردي رجل نبيل الروح . يكره الظلم ويهجم بمحاربته . ويريد اصلاح العالم . ولكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك . وأعتقد أن هذه الجريمة قد أثارته . يود أن يحمل نفسه المسئولية وأن يكون شهيداً . أنا سعيد يا حضرة الضابط لأنك لم تأخذ تصريحاته مأخذ الجد . ويجب أن تغفر له هذا السلوك فقد تصرف بنخوة الشرف .

صاح الكردي : سيدى . هذا فوق الاحتمال . دعنى أشرح لك . أعرف اننى لست القاتل . ولكن سواء كان أنا أم غيرى . فماذا يهم ؟ المهم بالنسبة لك يا حضرة الضابط أن تقبض على أحد . أليس كذلك ؟ حسنا . أقدم نفسى . ويجب أن تقر هذا .

قال نور الدين : عبثاً . عبثاً . ليس هذا هو المهم . أريد أن أقبض على القاتل ولا أحد غيره .

سأل يحيى : لماذا . لماذا تقبض فقط على القاتل ؟ انت تخيب ظنى . تترك نفسه فريسة لاعتبارات واهية .

كرر نور الدين : لماذا ؟ لماذا أقبض على انسان برى ؟

قال جوهر : من الصعب الخيار بين المذنب والبرى .

قال نور الدين : ولكننى لا اختار . ولكن اتخذ موقفا بعد اجراءات عديدة . لن أقبض على رجل الا عندما أقتنع بما اقترفه . كلكم مثقفون ويبدو عليكم انه ليس لديكم فكرة عن القانون .

قال يحيى : ليس القانون ما يهمنى . ولكن الانسان . ما يهمنى أن أعرف . لماذا يقضى رجل مثلك يضيع وقته فى مثل هذه الأشياء . بدلا من أن يتمتع بحياته القصيرة . أجد أن هذا الانشغال مثير للشفقة .

قال نور الدين : أنا لا أدافع سوى عن المجتمع ضد الجريمة أى نوع من الناس أنتم . تعيشون بعيدا عن الواقع .

قال جوهر : الواقع الذى تتكلم عنه واقع مزعوم . حلم اخترعه البشر .

قال نور الدين : ليس هناك واقعان .

هتف جوهر : أجل هناك الواقع المبني على الغش . وفيه تحبس انك مثل سمكة معلقة فى سنارة .

- وما هو الآخر ؟

- الآخر واقع متفائل يعكس بساطة الحياة . لأن الحياة سهلة . سيدى الضابط . ماذا يلزم الانسان كي يعيش ؟ قليل من الخبز يكفى .

رد جوهر : هو الشيء الذي نبحث عنه .

- يا الهى . من أدراك اننى أبحث . أنا أبحث عن قاتل .

قال يحيى : انت تشير دهشتى يا سعادة البك . لماذا لم
تأخذ باعتراف الكردى . أتمنى أن أعرف مبرراتك .

قال نور الدين : المبررات بالغة التفاحة . لأننى عقدت لقاء
مع هذا الشاب . ولا يمكن أن يكون الكردى أفندى قاتلا . فهو
يشترى كثيرا . واقع دائما تحت سطوة افكاره . وينقصه التملق
رجل مثالى . أما الرجل الذى ارتكب الجريمة فله صفات أخرى
تختلف . كتوم . مليء بالغموض .

هتف يحيى : يا الهى . أنت تتكلم عن علم النفس . لم
أكن أعتقد هذا فيك . سيدى الضابط . انت لا تكف عن إثارة
دهشتى .

- أعترف انها أول مهمة أتولاها من هذا النوع . غياب
الدافع الملموس . مما يضطرني أن أقول انها جريمة بلا دافع .
قال يحيى : الجريمة بلا دافع تتطلب فكرا راقيا . معذرة
كنت أتصورك ذا روح شرسة دنيئة .

قال جوهر : انت على خطأ يا عزيزى يحيى حين تتصور أن
حضرة الضابط ذو روح شرسة . فقد حلل الدافع جيدا . لكن
لي رأيا .

سأل نور الدين : ماذا ؟

- هل تقع الجريمة بلا دافع تحت طائلة القانون ؟ اليس
لها نفس مدلول الزلزال مثلا .

قال يحيى : وأيضا قليل من الحشيش .

- ليكن . وقليل من الحشيش .

هتف نور الدين . ولكن هذا ضد التقدم .

قال جوهر : يجب أن نختار . التقدم أم السلام . لقد
اخترنا السلام .

قال يحيى : اذن فلنتترك التقدم يا سعادة البك . أنت
تخرج . ونتمنى لك وقتا سعيدا .

فتح نور الدين فمه ليتكلم . ولكن لم تخرج من حنجرتة
المحشجرة أية كلمة . انه مشدود بشخصية جوهر . يتكلم هذا
الرجل عن السلام كأنه شيء سهل يمكن اختياره . السلام
يجعل نور الدين كل دخائل جوهر . ولكن هذا الرجل ليس
ما يبدو منه فقط . فهو ليس مفكرا فاشلا أحاق به الفقر .
يشع من وجهه الملى بالحيوية . ولغته الجذابة ونبل سلوكه
ذكاء حاد . كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يهوى فى أسفل درجات
السلم الاجتماعى ؟ هل اكتشف فجأة السلام فى هذا العدم
المتناهى .

حسب تقارير الشرطة . فان نور الدين يعرف أن جوهر كان
يشغل وظيفة فى مآخور الست أمينة . ولم يعلق لهذا أية أهمية
مؤمنا أن الأمر يتعلق بخادم عجوز أحسنت اليه بأن منحته عدة
وظائف . لم يتخيل هذا . يراه الآن أمامه . لقد غير فكرته فى
هذا الموضوع . وتساءل عما اذا كان هو القاتل . سأل جوهر
وهو يحدق فيه باستغراب :

- ما هو السلام ؟

قال نور الدين : الزلزال لا سبب له . انه قدر مشنوم .

رد جوهر : لكن الانسان أكثر شؤما لأقرانه . أصبح أشد من الزلزال . على كل حال . هناك الكثير من الدوافع . ألا تصدق سيدى الضابط . لقد أظهر الانسان من شروره أكثر ما تمتلك الطبيعة ؟

قال نور الدين مداعبا : لا أستطيع أن أقبض على الزلزال .

قال يحيى : والقنبلة . هل يمكن سعادتك أن تقبض على القنبلة ؟

قال نور الدين ساخرا : ولا هذه المجنونة . يا يحيى أفندى لا أستطيع أن أقبض على القنبلة .

قال يحيى : اذن ، فانهم يدفعون لك حتى لا تفعل شيئا . ما يهمنى . هو انك تقبض على قاتل مسكين . وانت غير قادر على القبض على قنبلة .

ابتعد سمير عن دائرة الحوار . ولم يقف أثناء هذا موقفه البارد الملى بالاشمئزاز . يبدو نافرا من كل هذا الجمع . فهم جميعا غرباء بالنسبة له . لم يقابل مثلهم أبدا . أحس ان هؤلاء الناس يتكلمون عن غباءات . وانهم يتعمدون استفزاز نور الدين ويتسللون به . نظر سمير الى الكردي . دون أن يعرف لماذا . فهم ان هذا يعرف . يعامل نور الدين بكراهية . هل لأن ضابط الشرطة أفضل منه ؟ أدار سمير رأسه . وقد أحس بالغضب يمتلكه .

قام . سأل نور الدين .

— معذرة يا سعادة البك ! على أن أعود للبيت . فأبى لا يسمح لي بالسهر حتى وقت متأخر .

قال نور الدين : تحياتي للأسرة .

قال سمير بلهجة لطيفة لكنها لاذعة :

— لن يفوتني هذا .

أدار ظهره وعبر الشرفة وهو يرفع رأسه عاليا . قال نور الدين :

— أرجو أن تعذروا صديقي . فهو شخص خجول .

قال يحيى : انه رائع . رائع حقا . لقد حان الوقت أيضا كي أذهب . أسف أن يفوتني حديث مفيد كهذا . الحقيقة أنني أكاد أن أموت نوما .

قال جوهر وهو يقوم : سعيد أن أتعرف عليك يا حضرة الضابط . الى لقاء آخر .

سأل نور الدين : هل يمكن ان اصحبك لحظة ؟

رد جوهر : بالطبع . فأنا في خدمتك .

اختفى يحيى . وظل الكردي وحده وهو لا يعير رحيل الآخرين اهتماما .

كتم يحيى صرخة وهو يقف . فقد تملكه شك رهيب . وابقظه من فتور . أحس فجأة أن جسده يحترق بكامله . ولكنه ليس باردا . فالبرد لا يمكن ان يصل الى المنطقة التي تقبع فيها عذاباتة . انتظر لحظة . ثم غمس يده في جيبه وأخرج قطعة

من النقود أخذ يقلبها بين أصابعه • يتفحصها طويلا متعجبا على ديمومة الأشياء • لكن هذا الأمر لم يبد له كافيا • فالاحاسيس المشثومة التي انتابته قد منعت من التنفس • عليه أن يتأكد ان القطعة غير مزيفة • كيف يتأكد في الظلام • عليه أن يقترب من النور •

هناك فانوس في أول الشارع • اتجه ناحية الضوء • وقد انتابته الشكوك • فلتكن النقود مزيفة • ولينم الليل • لكنه يتمنى ان ينام • في غرفة فندق • بعيدا عن البرد وتعب المشى بلا هدف • انه يعتمد على هذه القطعة التي لا يملك غيرها •

يقلبه النوم • حلم بالنوم في مكان مريح • يشعر بلذة الابدية • لا يزال المصباح على مسافة امتار • لا يمكن له ان يتماسك طويلا ، توقف لينظر الى قطعة النقود • فتح يده المرتجفة وامسكها بارتفاع عينيه واطلق صرخة مفاجئة • فقد سقطت قطعة النقود فوق الأرض • ولم يشعر بها تنزلق من يده المرتجفة • ارتمى يحيى أرضا وهو يتحسس بيده • لم ير شيئا • ولم يتحسس شيئا • أحس بالدوار وبدأت رأسه تنوء • لا يزال المصباح بعيدا • الضوء الذي يشعر يسقط في البؤرة التي يبحث فيها • أحس بالغضب يمتلكه • لعن نفسه لأنه أخرج النقود من جيبه • ثم أخذ يلعن الحكومة لأنها صكت النقود فئة القرشين صغيرة • الا يمكن للحكومة أن تصك قطعة أكبر • « حكومة الداعرين » • فبماذا كانت تفكر وهي تصنع هذه القطع في التوفير • هذا شيء مثير للخجل والعبث •

تخيل يحيى وسط غضبه أنه يحول المصباح الى مكان النقود وأنه قادر على كل شيء من أجل العثور على نقوده • فكر في الثقاب وقفز فرحا • لقد انتهت كل معاناته أثر هذه الحكاية • فعلمة

الثقاب موجودة في جيب بنطاله • أخرجها واشعل عودا • ادحنى وأخذ يدور بالثقاب حول نفسه • لم يعثر على شيء • فالثقاب لا تزال ضائعة • أشعل عودا آخر وسار بضع خطوات حتى كادت أنه أن تلمس الأرض • فجأة أحس بقلبه يطير من الفرح • فقد رأى النقود أمامه تلمع كأنها قطعة من الماس • التقطها ودسها في جيبه بسرعة • ثم ظل ساكنا لا يقوى على الحراك • أحس فجأة بالثقاب الذي نساء يحرق أصبعيه • صرخ : « حكومة الداعرين » •

سمع صوت خطوات قريبة • ثم توقف شخص خلفه • كتم يحيى أنفاسه • واستدار ووجد نفسه أمام شرطي • ياله من ظهور سيء • لا يتحرك من التعب والبرد والجوع • وأمامه الآن الممثل الرسمي لكل هذه الأشياء • ابتسم بغيا • قال الشرطي :

- اذن • فأنت تسب الحكومة •

تمتم يحيى • أنا لم أسب أحدا يا حضرة •

- سمعتك تقول « حكومة الداعرين » • لست أصما • هيا •

قل •

قال يحيى : أبدا يا حضرة • لقد أحرق الثقاب أصبعي •

قال الشرطي : سنرى الثقاب فيما بعد • اما الآن • فقل

لي • هل حكومتنا حكومة داعرة • نعم ام لا ؟ •

- أبدا يا حضرة ، بشرقي • لا أقصد حكومتنا •

- أية حكومة تقصد ؟

قال يحيى : أقصد حكومة أجنبية •

قال الشرطي شاردا : حكومة أجنبية • أنت كاذب : بل تعني

حكومتنا • وأنا متأكد من ذلك •

- بشرفى • هناك سوء تفاهم • ولكن الامر يخص حكومة
أجنبية • ويمكن ان اقول لك أى بلد •
سكنت الشرطى • بدا كأنه يفكر • وأنه يرى الامور تسير
سيئة •

- قل لى اسم البلد بسرعة •

لم يفكر يحيى فى اختيار البلد • فالعالم واسع • والبلاد
تتلاطم فى وجهه • وعليه ان يختار • خرج من بين شفتيه وقال :
- سوريا •

كرر الشرطى : سوريا • انها بعيدة • هل أنت واثق مما
تقول ؟

- بالطبع • واقسم لك بشرفى •

قال الشرطى : حسنا • ولكنى لن أتركك • ماذا تفعل هنا
وأنت تشعل الثقاب ؟ هل تعرف اننى كنت ارقبك منذ فترة ؟

قال يحيى : سأشرح لك • سقطت منى قطعة نقود وبجئت
عنها فأشعلت • كما ترى فالأمر سهل •

- قطعة نقود • ماذا تقصد ؟

بدا الأمر معقدا • ارتعد يحيى من البرد • ماذا يدور من حوله
كل حياته مطارادات • والان • وفى أول الليل • يجد نفسه امام
متاعب جديدة • انه يكره الشرطة وخاصة حراس الليل • ذوى
الوجوه القبيحة ورغم ذلك ففى هذه اللحظة تمنى أن يكون بعيدا
عن هذا الشرطى الضيق الافق الغبى • كفاه ما رأى • ولديه ما
يكفيه من الجنون • ليس أمامه سوى الليل • عليه أن ينام بعيدا

عن البرد • وان يتخلص من هذا التعب الذى يجره وراءه • أجل •
أن ينام •

تكلم بصوت خفيض • وقد اكسب كلامه أدبا •

- صدقنى يا حضرة • لقد اخبرتك بالحقيقة • وهى قطعة
النقود •

وأخرجها يحيى من جيبه وأراها للشرطى •
- لقد وجدتها عندما وصلت •

نظر الشرطى الى النقود وتثأب • لا يود أن يذهب به الى قسم
الشرطة • ثم ان الشخص يبدو له أقل أهمية • قال :

- حسنا • يمكنك أن تذهب • وكفاك أن تتصرف كالمشبهوهين
قانا اراقبك •

قال يحيى : شكرا يا حضرة • أنت رجل طيب • ولماح •
وستصبح وزيرا يوما •

تنهد يحيى بعمق • ثم أسرع • وصل أسفل المصباح •
فتوقف وفتح يديه وتفحص قطعة النقود تبدو عادية • قطعة
أصيلة • لا يجرؤ ان يرفضها أحد • استكمل طريقه وهو يشعر
ان الشرطى يتبعه فى الظلام •

توقف أمام أول فندق عليه لوحة « فندق الشمس » دخل •
ينام الموظف فوق اريكة قدرة • رفع رأسه ونظر الى يحيى كأنه
يعامله ككلى •

- ماذا تريد ؟

رد يحيى : غرفة •

قال الرجل : غرفة • أجل • يمكننى أن أعطيك غرفة •
قرشان • هل معك نقود ؟

استعد يحيى لطلبه • أمسك النقود فى يده ومدها للرجل
الذى أمسكها ونظر إليها فى ضوء مصباح الغاز الذى يضى الممر •
قال بنبرة مغايرة :

- اتبعنى يا بك •

صعدا سلم بلا درابزين بليت درجاته • وأحس أنه فُخ •
توقف الرجل فى الدور الثانى • امام باب دفعه وهو يقول :

- أنها أجمل غرفة فى الفندق • أنا لا أقدمها سوى لكبار
الزبائن •

قال يحيى : شكرا •

كانت الغرفة مفروشة • بسرير حديدى عليه غطاء وردي •
ومقعد ومائدة صغيرة مصنوعة من الخشب الأسود • ولكن يحيى
لم ينظر الى الغطاء •

- قل لى • الا يوجد عندكم بق ؟

رد الرجل مبغوتا : بق • أبدا • نحن فندق درجة أولى •

- شكرا •

قال الرجل • اتركك لتنام جيدا •

خلع يحيى ملابسه فى الظلام وتمدد فوق السرير • نام
بسرعة • وغرق فى احلامه • حلم أنه شرطى بالغ القوة ويحمل
الكثير من الاسلحة • ولا يخشى أحدا • وأنه سيد الشارع الذى
لا يهاب • يئذى الرعب فى طريقه • ويهرب كل الغلبة عندما يقترب

ثم رأى نفسه قزما قصيرا مليئا بالقبح والدمامة • أحس بمطرقة
تهوى عليه وألم ينخر فى جسده •

استيقظ يحيى وأطلق صرخة حادة • عم الغرفة برد قارص •
حاول أن يجذب الغطاء ولكنه بوغت أن الغطاء غير موجود • قطعت
الدعشة أنفاسه • لم يفهم • أين الغطاء • نادى على موظف الفندق
بأعلى صوته •

مر وقت طويل قبل ان يسمع ردا • جلس على السرير وقد
عقد يديه على صدره ليحمى نفسه من البرد • نادى من جديد •
فتح الباب • دخل الرجل ممسكا بيده مصباح الغاز • تقدم بحذر
وهو يضع أصبعه على فمه • صاح يحيى •

- أين الغطاء • ما الحكاية ؟

همس الرجل • لا شيء • اعطينه لزبون • وما ان يغط فى
النوم حتى احضره لك • بشرفى • اقسم لك • فلا تثر فضيحة •

تأكد يحيى مما حدث أثناء نومه • فقد جاء الرجل وجذب
الغطاء كى يعطيه لزبون آخر • اندهش من هذا الاسلوب الغريب •
سأله :

- اليس لديكم سوى غطاء واحد فى الفندق ؟

رد الرجل بصوت خفيض : أبدا • نحن فندق درجة أولى •
ولدينا ثلاثة أغطية • وعندنا زبائن كثيرون •

قال يحيى : فهمت • ماذا سنفعل • أنا بردان وأريد أن أنام •
فهاه الغطاء •

قال الرجل : بضع لحظات • بشرفى سوف احضره لك تورا •

والزبون الذى اعطيته له بالغ التعب • كان ينام واقفا • ولعله
نام الآن • لا تتحرك • سوف أرى • فلا تصرخ •

خرج الرجل على أطراف أصابعه حاملا المصباح • جلس يحيى
فى الظلام يرتعد من البرد • سماع الرجل يفتح باب غرفة مجاورة
لغرفته • ربما انها غرفة الزبون الجديد • تمتم يحيى : « يا رب •
لتجعله ينام » ثم انفجر ضاحكا ضحكة جلجلت فى الفندق بأكمله
كأنما أصابه جنون •

(١١١)

قدم الشرطى الذى اصطحب كل أفراد العصابة تفسيراته
بصورة مشوشة فلم يستمع السيد نور الدين • فهو لا يعبا بشخصه
ولا يعيره اهتماما • فموضوع المشاجرة التى دارت فى المقهى قد
تعقدت شيئا فشيئا • من بدأ المشاجرة ؟ لا أحد يعرف • جلس
نور الدين خلف مكتبه يرقب المشهد بعين مليئة بالاشمئزاز •
يتنهد أحيانا كرجل أصابه التعب والملل • يقفون أمامه صفا •
ثلاثة رجال أقوياء لكل منهم يدان غليظتان • لعلهم حوذيون •
وشخص رابع رقيق يدهى وجهه ويرتدى ملابس رثة • انه شحاذ •
يمسك برأسه وهو ينظر الى الضابط بكبرياء •

طرح نور الدين أخيرا سؤالا :

- هل تعرف هؤلاء الرجال الذين ضربوك ؟

تحرك الرجل الدامى الوجه وتقدم خطوة ناحية الضابط •
وكان هذا قد سبه بأمه • وصاح :

- يضربنى • من يجرؤ ان يضربنى ؟

- اذن مم تشكو يا ابن الكلب ؟

- أنا لم أشك ياسعادة البك • من قال اننى أشكو ؟

وقف الحوذيون الثلاثة صامتين • يستغربون من سلوك
ضحيتهم الغريب • قام نور الدين وقد انتابته الرغبة أن يضرب
كل من حوله • ولكنه أحس فجأة بكبريائه فتراجع • فهو من
الخارج ضابط شرطة • قاس • يرفل فى زيه الرسمى • ولكن
فى أعماقه يتساوى كل شيء • لم يفهم هذا المرض الذى يملكه
ويجعله يكره السلطة • يبدو له أن السلطة التى يستمد منها
قوته غير موجودة • يندعش من حضوره • وضع يده على وجنته
واستند على المكتب وقد بدا عليه الإعياء •

مال الشرطى عليه وسأله بصوت خفيض :

- هل أنت مريض يابك ؟

رد نور الدين : ادخل هذه الشرذمة الى الزنزانة • لا أريد
أن أراهم •

عندما خرج الشرطى والرجال الأربعة من الغرفة نظر
نور الدين الى المخبر الذى جلس على المقعد لتوه • انه هو الذى
كلفه بمراقبة الماخور :

- ما أخبارك ؟

- فى الواقع ، ليس لدى جديد يا سعادة البك • اعتقد ان
مهمتى لاجدوى منها • فكل الناس هناك يعرفون من أنا •

- هذا لا يدهشنى • فليس فيك شيء مميز •

- لقد حصلت لسعادتك على نتائج • اعترف هذا الشاب •

قاطع نور الدين : أعرف • أنه يسخر منك •

- لا أفهم •

- لا تحاول أن تفهم • فانت غلبان • قل لى • ألم تلاحظ
شخصا يدعى جوهر أفندى •

- أجل • رجل عاقل وله اسلوب مهذب • ولا يبدو مشبوها •

- حسنا • هذا سبب كاف بالنسبة لى • يمكنك أن
تذهب الآن •

بقى وحده • أمسك رأسه بين يديه وتهد بعرق • أعصابه
فى قمتها • لم تتركه هذه العصابة القذرة فى حاله • أراد نور الدين
أن يقتلهم جميعا حتى يخرسهم • منذ وقت طويل يؤدى واجبه
خير قيام • لكن ماذا يسمى هذا الضعف الغريب • هذا الملل
الروحى الذى يحسه أثناء الاستجواب • انه يقتل فيه كل رغبة
ويجعله غيبا •

الغريب • هو ذلك الكبرياء الذى اكتشفه فيما حوله بين
الناس الأكثر فقرا • الذين يملكون القليل • هذا الشحاذ ذو الوجه
الدامى نموذج غريب • لم يود أن يعترف ان أحدا ضربه •
وشعر أن شيئا قد مس كرامته • وجد نور الدين نفسه أمام نظام
لا يخرق • نظام يهرب من كل تحقيقات الشرطة • ما الذى جعله
يمتنع هذه المهنة ؟ هل لا يزال يؤمن بها ؟ انه يقضى حياته يغرد
أمامه هذه الحكايات الملعونة • يعانى من كبرياء الحفاة • أى حظ ؟
وبينما يختال من الكبرياء • لم يستطع أن ينسى الحقد الذى قرأه
فى عيون سمير • تنهد وهو يفكر فى هذا الأمر •

عليه أن ينسى • ويهزم آلامه • فليس هذا سهلا • ففى كل لحظة يبدو متكابرا لهذا المتشرد المسكين • سوف يوقظ هذا جراحه • لماذا يا الهى • أية فرحة تأملها ؟ أحس أن عليه أن يتخلص من مسئوليته فى هذه المعركة التى لا تنتهى ولا جدوى منها • ولن يحصل سوى المرارة والحسرة • ليموت القتلة والسفاحون • وليتخلص منهم •

كان الليل قد حل عندما قام وخرج الى الشارع • أضواء المصابيح الميدان الملىء بالمحلات والمقاهى المزدحمة • أسرع نور الدين عبور الطريق دون أن يعير وسائل النقل اهتماما • يسمع أصوات الترام والسيارات ولكن يبدو له أن الأشياء تباعد عنه • تقدم زائغ العينين • وقد فك أزرار سترته متجها نحو مصير قوى غاشم • فعندما قابل جوهر • أبان الحديث الذى دار بينهما - رافقه حتى باب • حدث تغيير فى مفاهيم نور الدين تتعلق بمهنته • بدأ نور الدين فى التردد • يشك أبدا فى السلطة المقدسة التى يمثلها • بدأ فى التساؤل أين الحقيقة • فهو ليس متأكدا من شئ • فرغم اقتناعه أن جوهر هو القاتل الذى يبحث عنه الا أن ليس لديه دليل ملموس • لقد اهتم بشخصية جوهر • أكثر من اهتمامه بالقبض عليه كمجرم • حسب أن جوهر قد طرح مشكلة سيكون حلها جوهريا بالنسبة لمستقبله • وأثناء هذا بدأ فى تجميع كل الأدلة ضد جوهر • أحس انه يمس أمرا حساسا • ولن يترك خلفه سوى ركام • ولكنه يشعر أن هذا الركام سوف يسبب له سلاما • هذا السلام الذى أحسه أثناء لقائه بجوهر يفقده الآن •

تاه نور الدين بين الحوارى التى تضيئها فتائل المصابيح البعيدة • لا يتذكر جيدا أين يقع البيت • فكل البيوت متشابهة • قام بعدة دورات يتفحص واجهات البيوت وهو يحاول أن يتذكر

أمام أى باب ترك جوهر فى ذلك المساء • لم يستطع أن يحدد المكان بالضبط • راح وجاء حتى شعر بخيبة أمل • عندما ساقته الصدفة أن يراه يدخل أحد الأبواب • قال جوهر :

- يا للمفاجأة السعيدة • هل جئت لتزورنى • أهلا وسهلا •
- كنت أمر فى الحى • وفكرت فى زيارتك • أتمنى
الا أزعجك •

- أبدا • هذا شرف لى • فرصة سعيدة • فى الواقع لست معتادا على العودة الى المنزل مبكرا • ولكننى أردت أن أضح هذه الباقة فى حجرتى •

حمل جوهر تحت أبطه باقة كبيرة من الصحف القديمة التى ينام عليها • طبقها تحت أبطه وبدأ لاهثا • تأمل الضابط بعين مرتابة • فان لقاءه به مبعثا لسعادة غريبة • أحس أن هذا اللقاء متعمد وأن نور الدين جاء لاستجوابه • هل يشتبه فيه ؟ على كل • فهو ينتظر هذه الزيارة • بل يأملها قال :

- معذرة أن اسير أمامك • ولكن يجب أن أشير لك على الطريق • والاختطرت بقتلك • فهذا بالغ الخطورة • وكل درجة فيه فسخ مميت •

تبع أحدهما الآخر • داسا فوق السلم • لم ير نور الدين جوهر • سماع أنفاس تلهث بصوت أجش • أحس أنه أصبح أعمى •

أخيرا رأى ضوءا • وقف جوهر على السلمة الكبيرة • كان باب غرفة جيرانه مفتوحا • ينبعث منها ضوء خافت من لمبة غاز وتبدو الغرفة خاوية • توقف جوهر عن الحركة لحظة • فهذا الباب المفتوح

يخيفة • لا يريد أن يقابل جارته • هذه المرأة المخيفة • ولكن فجأة
سمع صوت أشبه بصوت طفل يشده من تروذه :

- أيها الناس الطيبون ساعدوني •

تقدم جوهر حتى عتبة الباب دخل غرفة جيرانه • باحثا عن مصدر
الصوت • رأى فى ركن من الغرفة القعيد ملقى على الأرض • كأنه
تمثال يتبر الذعر • غرق فى دموعه • يحملق فى طبق ملئ بالفول
وبعض اللقيمات أمامه : عشاءه • عندما اقترب جوهر • رفع رأسه
وقد اكتسى وجهه بالارتياح • سأله جوهر :

- ماذا أستطيع بالنسبة لك :

رد القعيد : أنا جوعان • ذهبت المرأة وتركتنى وحدى • الا
يمكن أن تساعدنى فى تناول الطعام !

رد جوهر : طبعاً •

انحنى ليضع باقة الجرائد أرضاً • وترك نور الدين يقف على
الباب • صرخ فى القعيد حين رآه :

- الشرطة • ماذا تفعل الشرطة هنا ؟

قال جوهر : انه صديق • لا تقلق • فهو لا يريد بأحد شراً •

- لا أحب الشرطة • فليذهب

نسى القعيد جوعه تحت وطأة الخوف ولم يفكر سوى فى
هذه الكارثة المفاجئة المتمثلة فى حضور الضابط • تلوى على
عجيزته مستنداً على أسنانه • وأطلق زمجرة كحيوان سقط فى
فخ ويريد أن يهرب من القبض عليه • فشلت المحاولات اليائسة
التي بذلها نور الدين لتهدئته • واستكان أخيراً • وتخلص من

الخوف شيئاً فشيئاً • ظل ساكناً فاغر الفم • ينتظر طعامه •
بدا أشبه بصغدع بهذا الأنف الكبير والثفتين الغليظتين والوجنتين
المرتجفتين • واللحية •

انحنى جوهر قريباً منه • وبرقة وعدوبة أبوية بدأ فى
اطعامه • تصرف مع القعيد كأنه طفل صغير • سأله :

- لماذا ذهبت • هل اختلفتما ؟

قال القعيد : أجل • ابنة الكلب غيورة • لا تكف عن اختلاق
الحكايات •

قال جوهر : اذا كانت غيورة فهي تحبك • احك لى
ماذا حدث ؟

- حسناً • فى هذا المساء • عندما جاءت تأخذنى من
المدينة • وجدتني أتحدث مع جامعة أعقاب شابة مما أغضبها •
وفى كل مرة ترى امرأة قريبة منى • تصيبها الغيرة • ومع ذلك
فأنا وفى • وليس لى حول اذا أعجبت النساء بى • يا الهى •
لا أعرف ماذا يجذبهن فى ؟

ظل نور الدين مستنداً على طرف الباب • أثارته كلمات القعيد
انتباهه • هل هذا حدث فعلاً ؟ لا يمكن أن يصدق هذا الكلام •
خاصة فيما يتعلق برجل له هذه الصفات • أحس أن القعيد يبالي
بطريقة سافرة وهو يتكلم عن الجاذبية التي يسببها للنساء
وما يشبه هو غياب كل الحركات فيه مما أكسب القعيد صوتاً
جهوراً وقوياً • وكأنه صندوق يتكلم • ود نور الدين أن يتفجر
ضحكاً • لكنه أحس أن وظيفته تمنعه • فمهما حدث عليه أن
يكون جاداً • لقد جاء هنا كى يحل لغزاً ، وينكنه أخيراً أن يفهم •

أكل الرجل بشرافة • ومن وقت لآخر يلقي نظرة على نور الدين • لم يصدق حتى الآن أن ضابط الشرطة في داره لزيارة حميمة • فاحساسه أنه سيقبض عليه قد يجعله يتقيأ • ولذا يتوسل الى جوهر أن يسرع • والا يتركه • قال جوهر :

- ولا يهمك • سوف تعود بالتأكيد •

قال القعيد : لا • لا أريدها • لتذهب في داهية • فكفاني ما رأيته منها • ثم انها أكبر منى سنا • سوف أجعلها تتحسر وأتزوج مرة أخرى من فتاة بكر •

ابتسم بوقاحة وهو ينظر الى جوهر ويكمل :

- ما رأيك ؟

تذكر جوهر المرأة العملاقة • وهنأه لأنه ستكون له جارة حلوة قريباً • وقال :

- أعتقد أنك على حق • فمن الأفضل أن تتزوج شابة صغيرة • فهي ستجعلك سعيداً •

- ليس كذلك • فتاة بكر صغيرة • أمل أن تشرفني في حفل زفافي • سوف أقيم وليمة عشاء •

قال جوهر : لن تفوتني • هل تود أن تشرب ؟

- أجل • من فضلك • القلة هناك •

وضعت القلة بجوار الحائط خلف جوهر الذي أمسكها وقربها من فم القعيد وجعله يشرب • قال القعيد بعد أن شرب :

- شكراً • أنا ممتن لهذا الكرم •

رد جوهر : هذا شرف لي أنا •

- يمكنك أن تعتمد على معرفتي • سأكون سعيداً وأنا أرد لك الجميل •

قال جوهر : في خدمتك • فجار مثلك منحة من السماء •

لم يكن تبادل عبارات المجاملة مقنعاً لنور الدين الذي أحس انهما يسخران منه • ود أن يذهب • وقلت من هذا الجحيم • ولكن شيئاً ما أوقفه رغماً عنه • انهما يريدان أن يفسرا له كيف أن هذا القعيد • بقايا الانسان • يمكنه أن يشير غيرة امرأة • بالطبع لا • أما جوهر فقد استكمل حديثه مع القعيد وكأنما يتعلق الأمر بنقاش بالغ الرقى • أحسن نور الدين أنه أمام زوجين يتبادلان الغزل • انتابته الرغبة أن يحطم كل شيء أمامه • تراجع ببطء فوجد نفسه أمام السسلم المظلم • ولكن الوقت متأخر كى يهرب من هذا الفخ الذي دبّره القدر • عبر السسلم ودفع باب غرفته •

- تفضل يابك •

تردد نور الدين أمام الباب • ثم تقدم في الظلام كأنه قد قرر أن يدخل هوة سحيقة • توقف لاهثاً • فقد اصطدم بشيء خشبي • استدار وهو يشعر أن مسكينا سوف يطعنه في قلبه • أحس أن سمير يخنفي حاملاً سكيناً ويود أن يقتله مثلما أبلغه يوماً • وخلال لحظة بلغ فيها اعداؤه حده • سمع جوهر يتحرك في الظلام • ثم أشعل شمعة أضاءت الغرفة • قال جوهر :

- أتريد أن تجلس • معذرة الا أتشرف بهذا • فهذا مسكن فقير • تصرف كأنك في بيتك •

جلس نور الدين على المقعد ولم يرد • ماذا يعني هذا الحوار • هل يتصوره غيباً ؟ يتصرف كأنه في بيته ! لقد بلغت السخرية

مداها • كاد نور الدين أن يعتقد أن أرواحا خبيثة تسخر منه •
انتظر أن يرى قطعة أثاث • أو أى شئ مكسور • لكن لا شئ •
فى هذا المسكن الغريب • هذا الخواء الغريب أشبه بسراب •
بدا له هذا الخواء مشبوها • وهو يجول بعينيه بنظرة قلقة
ملبنة بالدهشة •

جلس جوهر فوق باقة الجرائد • وأسند ظهره للحائط •
لا يزال يرتدى طربوشه ويمسك عصاه فى يده • الجو بارد ورطب
فى الغرفة • زرر نور الدين ياقته • وهز رأسه وقال بعد صمت •
- كل هذا يبرر السبب يا جوهر أفندى •

- ماذا تعنى ؟

- أفكر فى هذا الشحاذ • الذى يتصور أن كل النساء
يجرين خلفه •

- لاتنس سيدى الضابط أن هذا الشحاذ - بسبب دخله -
يعد منجم ذهب • ولهذا تهتم به النساء •

- ومع هذا فهو مخلوق بشع •

قال جوهر : لا شئ • بشع • خاصة بالنسبة لامرأة • فهذا
الرجل يمارس الحب جيدا وأفضل من آخرين • وأؤكد هذا من
خلال ما سمعت • صدقتى فقد كانت تأوهات زوجته تؤكد ذلك •
واعتقد أن هذا يكفى لاحداث النسوة •

- أية نشوة •

قال جوهر : إلا تعرف أن رجلا كهذا يسبب نشوة ؟

- تقصده وحشا كهذا •

- وحش أفضل منا سيدى الضابط • لأنه يعرف السلام •
هل تعتقد أن للحكومة سيطرة على رجل قعيد • ماذا تملك له •
قال نور الدين : تقبض عليه •

- على قعيد • لا • لا يمكن لاية حكومة - مهما كانت
أخلاقياتا - أن تفعل هذا •

- أنت رجل غريب • هل تقرأ كل هذه الصحف ؟

- رد جوهر : ليحفظنى الله • اننى استعملهم كحاشية
أنام عليها •

لم يفهم نور الدين ماذا تعنى الصحف المفروشة فوق الأرض •
فى مسكن مليء بالفقر • ربما أكثر المساكن فقرا • ينام فوق
حاشية • كيف يمكنه أن ينام فوق كومة صحف ؟

- إلا تقرأها • أنام فوق هذه الكومة ؟

- أنام هكذا منذ سنوات • هل يدعش هذا سعدتك ؟

- كيف وقعت فى هذه المأساة ؟ فمن حديثك • يبدو أنك
رجل مرموق • رفيع الثقافة • وانك تشغل منصبا حساسا فى
المجتمع • ومع هذا تعيش كصعلوك • هناك سر أريد أن أفهمه •

- لا يوجد سر • أعيش كصعلوك لأننى أرغب ذلك •

- يا الهى • أنت غريب • ولا أفهم ظروفك •

- الحقيقة سيدى الضابط التى تدهشك ببساطة هى
الحياة • الحياة الحقيقية • الطفولة البسيطة • لا يوجد غموض •
هناك فقط أقدار •

- من تقصد بالأقذار ؟

- اذا لم تكن تعرف الأقذار فلا أمل فيك . انه الشيء الوحيد الذي لا نعلمه للآخرين . سيدى الضابط .

أخفض نور الدين رأسه . ووضع يديه على ركبتيه . بدا كأنه يفكر في مشكلة عويصة . ثم قال :

الأمر أكثر تعقيدا من هذا . فلا يوجد مستوى طبيين وأقذار .

قال جوهر : لا . أرفض هذا المفهوم . لا ثقل أن الأمر أكثر تعقيدا مما تتصور . كيف لاتفهم أن هذه الأوضاع لا يستفيد منها سوى الأقذار ؟

صمت نور الدين . من جديد أحس بالملل يتسرب اليه . هذه الغرفة الخاوية التي تنقل على مشاعره تبدو معزولة عن بقية العالم . تخيل نفسه نائما فوق كومة من أوراق الجرائد . سعيدا . هائنا وقد تخلص من كل متاعبه . عن ماذا يبحث عن شيء أكثر راحة للبال من هذا . حقا . لا يمكن أن يحدث شيء في هذه الجدران . في هذا العدم . جوهر بلا شك على حق . يعيش كصعلوك . وهو عين العقل . حياة بدائية المظهر . بلا متاعب . بلا خوف أو حياء . لقد كان فخورا بهذه الآثام التي اقترفتها طيلة سنوات . فليغسل نفسه مما ارتكب فليس لديه ما يخشاه في احتقاره وآثامه المفرطة .

لكن ليس من السهل أن يقع تحت طائلة الاغراء . قام من مقعده . وسار في الغرفة ثم استدأر ووقف أمام جوهر . وللحظة أنجب يهدو وجهه مضيقه الذي يشع عن انعكاس ضياء الشمعة .

هذا الرجل ارتكب - بلا شك - جريمة . ومع هذا فإن ملامحه تحتفظ بصفتها . بعيدا عن الخوف والمعاناة . غريب عن العالم الذي يحيطه . انطلقت تنهيدة من صدر نور الدين . أحس انه لم ينضج بعد كي يصل الى هذه السكينة . التي يحسها في حياته كصعلوك . انه يقع تحت سيطرة تملها عليه وظيفته . وواجبه يتطلب منه أن ينهي مهمته . لا يمكن أن ينسى انه ضابط شرطة عليه احترام القانون . وانه هنا من أجل قتل العاهرة الصغيرة . قال :

- في الحقيقة . جئت لأسألك بضعة أسئلة .

قال جوهر : وأنا أسمعك . يمكنك أن تسأل كما تشاء .

أكمل نور الدين وهو يجلس على المقعد : تتعلق بجريمة القتل في الماخور .

قال جوهر : أعرف . كنت أنتظر زيارتك . وسوف أزد عليك . وسوف أعد لك قهوة معدرة فقد نسيت أن أقدم لك مشروبا .

قال نور الدين : لا أريد شيئا . لاتزعج نفسك من أجلي .

أشعل جوهر الواپور أثنا ذلك وبدأ يعد القهوة . وبينما يشرب من القلة . تأمل نور الدين في صمت . انه جاد في أن يعرف . ولكن ضابط الشرطة لم يسأل بعد . يبدو كأنه ضائع في حلم بعيد . ولهذا سأل جوهر :

- هل تشك في أحد ؟

قال نور الدين زانغ العينين : بصراحة أنا أشك نيك .

قال جوهر : حسنا . اهنتك . فانت على حق . لأننى
القاتل .

أحس نور الدين بكارثة تسقط على أم رأسه من جراء هذا
الاعتراف . هز رأسه بينما تتطاوح يده أمام عينيه . كأنه ينكر .
ويرفض . صراح :

- يا للسخرية . هذا عبث طفولى . يا جوهر أفئدى !
صديقك الشاب الكردي قد هذا حذوك . ماذا لكنى . هل تود أيضا
اصلاح العالم ؟

قال جوهر : رائع ان تشبهنى بهذا الشاب . الكردي يفكر
مثلك . ويعتقد ان الأمر أكثر تعقيدا من هذا .

جهزت القهوة . سكب جوهر حوايا البراد فى فنجانين .
ثم مد أحدهما الى نور الدين .

قال : تحت أمرك . ماذا تود أن تفعل ؟

- ليست أمامى فكرة الآن . لايمكن ان أقبض عليك بسبب
اعتراف بسيط . تلزمنى قرائن . سوف اتخذ قرارى غدا . يجب
ان أسال شخصا . وسيتوقف كل شئ على هذا الاستجواب .

ثم فجأة . سمعا أغنية قادمة من الغرفة المجاورة . يغنى
القعيد أغنية مرحة مليئة بالجنون . أرخى نور الدين أذنيه :

بسرعة يا عرجى ، خذنى معاك .

وودينى بيت البنات الحلوة .

- انه يغنى .

قال جوهر : ولماذا لا يغنى . فلديه كل أسباب السعادة .

- بالتأكيد . كنت أحب ان أفهم كل هذا .

رفع نور الدين الفنجان الى شفثيه وارشف من القهوة
المريرة . ربما أكثر مرارة من حياته كلها .

كادت الشمس أن تصل الى عنان السماء عندما توقف يحيى
متزهدا فى الميدان . يعرف أنه سيكون بعد قليل فى قسم
الشرطة . ومع ذلك فهو ليس خائفا . فهو لا يخشى شيئا فى
تردده . لقد استولت عليه رغبة عارمة أن يطيل نزهته وسط
الجموع . عليه أن يبدو طبيعيا رغم انه مسطول . يحس بالهدوء .
وبالصفاء الروحي . تملؤه فكرة مواجهة السلطات حتى فى
أضيق الحدود .

انتظر يحيى أن يأخذ هذا الموقف المقارن . يشك أن
ضابط الشرطة نور الدين يحمل له نيات سيئة . لكن ماذا يعرف
بالضبط ؟ هل يعامله كقاتل . أم يشبهه فى انه يعرف القاتل ؟
على كل فهو يأمل ان يعترف له . انه يعرف الطريقة التى سيلجأ
اليها الضابط . سيصبح القهر وسيلة حياة فى مجتمع متحضر .
لايمكن لأحد أن يفعل شيئا لشرطان المعدة . ولا ضد الرعب
الذى يمارسه البشر على الآخرين . نظر يحيى الى قسوة رجال
الشرطة بنفس منظوره الى الأمراض المستعصية والى كوارث الطبيعة .

يقع قسم الشرطة فى الجهة المقابلة من الميدان . مبنى من
الحجر الأبيض . دور واحد . ذو نوافذ صغيرة مدعومة بحديد .
وبدلا من أن يعبر يحيى الشوارع سار فوق الرصيف الأسير .
الساعة الحادية عشر صباحا والميدان مزدحم بالعديد من البشر
الذين يمارسون مهنة عتيقة يحب يحيى كثيرا هذا المنظر . من السهل
أن يعي أنه ليس هناك شئ عاجل فرغم ضجيج الترام وأصوات

العربات • وصياح الباعة الجائلين • أحس يحيى بأن هذا عالم
تقوم فيه الإيماءات والكلمات بدور هام • فالمستقبل بعيد عن هذه
الجموع التي تتحرك نحو الأبدية • يبدو مزدحماً بفرحة عارمة
لا يمكن لأى اضطراب أن يغيرها •

فكر يحيى فى المعاناة التي تنتظره • انها ليست أول مرة
يتم استجوابه فيها • وليست وحشية الشرطة بخافية على أحد •
حتى فيما يتعلق بتلك المخالفات الصغيرة المتعلقة بتعاطي المخدرات
هذه المرة يختلف الأمر • فهو يتعلق بجريمة قتل • السؤال هو
أن يعرف هل سيضربه رجال الشرطة بقوة كالعادة • هل يعاملون
من يتعاطى الحشيش مثل المشبوه فى جريمة قتل كى يرغموه على
الكلام ؟ يعرف أنه لن ينطق أبدا باسم جوهر • فهذا ليس من
سمات الشجاعة أو الولاء لصداقته • فما حدث يسدو له أمرا
غابرا بالمقارنة للجرائم العديدة التي تقترب في العالم • لا
الآن • لا يتعلق الأمر بجوهر • ولكن عليه أن يدين لنور الدين
دور الشرطة • فنور الدين شخصية عبثية • وعلى يحيى أن يكشف
له حساسية موقفه وعند هذا الحد سوف يكون سعيدا وسيضحك
ساخرا •

دخل يحيى القسم ثم عرج على غرفة كبيرة بيضاء الجدران •
ليس بها سوى مكتب يجلس خلفه جاويش يقرأ جريدة بطريقة
تثير الضحك • اقترب منه يحيى وأخرج طلب استدعائه وانتظر •
كف الجاويش عن القراءة ورفع رأسه :

— اذن فهو أنت ؟

تطلع الى يحيى كأنما يلقى عليه العديد من التهم • يعرف
يحيى هذه النظرة • فدهامته لا تعجب رجال الشرطة • يحسون فيها

بروح قاتل أثيم • ابتسم ومد للجاويش بالورقة فأخذها وألقى
عليها نظرة ثم قال :

— انتظر مكانك ولا تتحرك •

قال يحيى : لن أهرب •

داس الجاويش على زر وهو يرقب يحيى بعين حذرة • على
التو ظهر شرطى أشبه بالثور وحياء التحية التقليدية •

— تحت أمرك يا جاويش •

— خذ هذا الرجل الى حضرة الضابط •

حياء الشرطى من جديد • ثم أشار ليحيى أن يتبعه •

— تعال •

تبع يحيى الشرطى فى ممر ضيق • أحس بارادته تخور وهو
يتأمل دليله • لقد وقع بين يدي جلال الموت • توقف الشرطى أمام
باب وطرق • رد صوت من الداخل • فتح الشرطى الباب ودفع
يحيى أمامه •

— حضرة الضابط ! قال الجاويش أن آتى بهذا الرجل اليك •

قال نور الدين • حسنا يمكنك أن تذهب •

كان الضابط جالسا خلف مكتبه • وقد فتح ياقته • وبدأ
مكفها غير حليق اللحية • وكأنه لم ينم ليلة الليل • تشع عيناه
بالحرارة • وهما تتطلعان الى يحيى كرجل يعرف سر الحكاية :

— تعال • أنا سعيد لرؤياك •

قال يحيى : سلام عليك يا حضرة الضابط •

رد نور الدين : لقد تأخرت . ولهذا السبب وحده تستحق
الحبس ثمانية أيام .

- آسف يا حضرة الضابط . فليس لدى منيه .

- دعك من السخافات . فلست مستعدا للمزاح . الأمر
جاد هذه المرة . ولن تخرج حيا من هنا .

ودون ان يستأذن أمسك المقعد . وجلس وهو يقول :

- لقد كتبت وصيتي .

سكت نور الدين . حاول أن يتمالك غضبه . فمن أولى
كلمات يحيى وهو يبدو ساخرا من هذا الاستجواب . هؤلاء الناس
لا يأخذون الأمر بجدية . ويشعر نور الدين أنه في أحسن
حالاته مع هؤلاء الحفاة مهما كانت الجرائم شديدة . ومع هذا فإنه
يشعر خوفهم . لكن مع هؤلاء المتنفذين الذين يسخرون من السلطة . .
فانه يتظاهر بأنه حساس . بمعنى انه يؤمن بوجود الحكومة .
والخطب التي يلقيها الوزراء . وان هناك ضميرا أعمى في دساتير
العالم المتحضر . وسلوك يحيى وأقرانه يضايقه دائما . يبدو لهم
أنه لا توجد حكومة . فهم ليسوا ضد الحكومة . ولكنهم يتجاهلون.

- لن أتحمل طويلا سخرياتك الغبية . أنت هنا لترد على
استجواب يتعلق بجريمة قتل .

ابتسم يحيى بغباء .

- أنا في خدمة سعادتك .

يود أن ينتفض من مقعده يعرف أن كل هذا سوف ينتهى
فجأة لأنه لن يقول شيئا . وعبر الستار الحديدي للمنافذة المغلقة

الزجاج . رأى حركة الميدان وسمع ضجيج العربات الحياة تسير
بالخارج . قال الضابط :

- حسنا . لنبدأ من الأول . ولكن أحذرك . عليك بالجدية .
أريد اجابة محددة . أعرف انك تعلم أشياء كثيرة .

قال يحيى : أنا . حقا ياسيدى الضابط . أنت تشرفنى بهذا .

- قل لى . هل كنت فى بيت الست أمينة يوم الجريمة ؟
بدا يحيى يفكر :

- كى أقول الحقيقة لحضرتك . فقد كنت نائما .

- عندما قتلت أرنية . أين كنت ؟

- قلت اننى كنت نائما .

تمالك نور الدين أعصابه . ظل صامتا لحظة . وقد تجهم
وجهه . لم يشك أن يحيى يتصنع الغباء .

- أنا واثق انك كنت هناك فى هذا اليوم . من قابلت ؟

- كنت نائما يا حضرة الضابط .

- ألم يأت أحد أثناء نومك ؟

- كيف تريدنى أن أعرف . طالما كنت نائما .

- يا الهى . هل كنت نائما طيلة الوقت يا ابن الكلب .

قال يحيى : معذرة يا حضرة الضابط . لم أكن أعرف أن النوم
عملية غير قانونية .

- حسنا . سوف أوقفك .

أحس نور الدين بالتشتت . فهذا الغباء قد تجاوز حدوده .
كان هذا الملعون نائما . لعله تعاطى حشيشا قبل أن يأتي .
يعرف أنه قادر أن يتخلص من هذا الموقف أو أن يسير فيه
حتى النهاية .

- ساءهلك خمس دقائق لتفكر . وبعد ذلك سأجبرك
على الكلام .

رد يحيى أنه كان نائما . وعندما لم يطرح الضابط أسئلة
سكت . بدأت الدقائق الخمس فبدأ يفكر في أشياء تافهة .

نظر نور الدين الى ساعته . ثم جلس في مقعده وانتظر .
لقد استغرق هذا التحقيق وقتا طويلا . ولن يصبح أهلا لتقّة
السلطات العليا . يعرف أن يحيى لن يتكلم . حتى لو عذّبوه .
وسيحفظ سره . هذا الموقف يؤذى شخصه . انه بادى القلق .
يعلم نور الدين أن يحيى يعرف القاتل . لماذا يسكت ؟ فالقاتل
لا يمكنه أن يدفع له كى يسكت . والجريمة ليس لها دافع .
وليست مسألة شرف . لقد تجرّى نور الدين ماضى يحيى ليعرف
أن هذا الأخير لم يكن مشبوها يوما .

سأله :

- الست خائفا من الضرب ؟

رد يحيى : أبدا .

- مستحيل .

- ليس الضرب سوى حدث في حياة رجل مثلي ياسيدي .
أمر عادي .

- أنت رجل بلا كرامة .

ضحك يحيى وقال .

- أنت تذكرنى بأمرى . كانت تقول لى دائما أن أبى رجل
شريف . أما أنا فعار على الأسرة .

- أليس لديك أى احساس . الا تحس بشىء .

- نعم يا حضرة . الآن أشعر بدهشة عظيمة .

- أى نوع من الدهشة ؟

- أدهش من رجل مثلك يقضى وقته فى ممارسة ألعاب
رائعة كهذه .

- فيم تودنى أن أقضى وقتى ؟

رد يحيى : فى التشره .

أحس نور الدين بالغيظ . فقال .

- ليس لى الآن حول . ذنبك على جنبك .

فتح الباب فدخل منه شرطيان . نظرا الى يحيى وهما يقتربان
منه ببطء .

- ستتكلّم الآن .

لم يرد يحيى . أشار نور الدين الى الشرطيين . مر أحدهما
وراء يحيى بينما أمسكه الأول من الأمام وبدأ فى ضربه .

نظر يحيى الى ما يحدث كأنما الأمر لا يعنيه . تساءل عما اذا
كان الضابط يلعب دورا رائعا بالنسبة لهم . فهذا شيء رائع .

فهؤلاء الناس يتسلون بطريقتهم • وهو لا يكن لهم أى ازدراء
أو كراهية • أحس بالهدوء • وأغلق عينيه •

لقت الضربة الأولى رأسه • أحس بالم غريب اعتدل بعد
الضربة الثانية • ثم توالى الضربات • ازداد الألم الى حد لا يستطيع
احتماله • وجد نفسه غارقا فى جحيم أسود • بنور البرق • وهو
يسمع نور الدين يسأله :

— هل ستتكلم يا ابن الكلب ؟

وفجأة • وسط ارتطام رأسه • سمع ضجة من بعيد •
ذكرته بشئ وما حاول ان يعرفه • أجل • انها مدافع أذان الظهر •
فتح عينيه وصاح •

— انه الأذان يا سادة •

رفع الضابط ذراعه كى يضربه • توقف مندهشا • سأله :

— ما •• ؟

قال يحيى بصوت ضعيف : أعتقد ان ساعة الأكل حانت •
فانا جوعان •

أخفى نور الدين رأسه بين يديه • وأراد أن يصرخ •
صاح :

— ألقوه فى الخارج لا أريد أن آراه •

أمسك الشرطيان يحيى ودفعاه خارجا • بقى نور الدين
وحيدا • وقد شعر بالتوهان • ثم تذكر ان الظهر قد حان وعليه
ان يذهب لتناول الغذاء •

وعندما خرج نور الدين من قسم الشرطة • كان قد أدرك
ان جوعه هو القاتل الحقيقى • ولكن ماذا يهمه الآن • لقد قرر
ان يقدم استقالته ويعيش حياته كصعلوك • صعلوك أمر سهل •
ولكنه سيد متكابر • أين يجد الكبرياء • ؟ لا يوجد أمامه سوى
مئل لا ينتهى • وحاجة كبيرة للسلام • للسلام وحده •